المرحلة الثالثة

مَرحلة قيَام الدَّولة

obeikandl.com

obeikandl.com

السمة الأولى
طلب المنعة خارج مكة

وكان ذلك عندما وصل المسلمون فى مكة إلى الطريق المسدود ، فقادة مكة أصروا على مواقفهم ، والمسلمون موزعون بين الحبشة مشردين ، وبين مكة مضطهدين ، والأمر محصور فى الدعوة دون تغير فى الواقع القائم ، فكان لابد من البحث عن مكان جديد تنطلق منه الدعوة ، وكان أقرب المواقع لمكة ثقيف فى الطائف ، فمضى رسول اللّه ﷺ إليها كما يحدثنا ابن إسحاق :

(ولما انتهى رسول اللّه ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف يومئذ ، سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو . . . فجلس إليهم رسول اللّه ﷺ وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان اللّه قد أرسلك . وقال الآخر : أما وجد اللّه أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : واللّه لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ؛ لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على اللّه ما ينبغى لى أن أكلمك . . . فقام رسول اللّه ﷺ من عندهم ، وقد قال لهم : « إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى » ، وكره رسول اللّه ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلةٍ من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، فلما اطمأن رسول اللّه ﷺ قال ـ فيما ذكر لى ـ : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدوٍ ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى

ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »)[1] .

ونجد فى روايات أخرى أن رسول اللّه ﷺ أقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه . فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم . قال موسى بن عقبة : ورجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء . وزاد غيره : (وكان إذا أذلقته الحجارة قصد إلى الأرض ، فيأخذونه بعضديه ، ويقيمونه ، فإذا مشى رجموه ، وهم يضحكون ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً)[2] .

لقد كان سعى رسول اللّه ﷺ إلى الطائف ذا هدفين :

الأول : دعوة ثقيف إلى الإسلام .

الثانى : طلب الحماية والنصرة منهم كما يقول محمد بن إسحاق : (. . . وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه) [3] .

نحن إذن أمام مرحلة جديدة تختلف عن سابقتها فى هاتين النقطتين الأساسيتين :

أولاهما : لأول مرة يخرج رسول اللّه ﷺ خارج مكة ، ويفكر فى تغيير مركز الانطلاق ، هذا وإن كان قد هيأ مركزاً احتياطياً له فى الحبشة ، غير أنها لا تصلح مركزاً للانطلاق إلا عند الضرورة القاهرة ؛ لأن الحبشة بعيدة عن الجو العربى ، ولابد أن تكون القاعدة الصلبة للانطلاق من قومه ليمكن قبولهم من بقية العرب ، فلقد كانت قريش تأخذ على رسول اللّه ﷺ أن جمع أوشاب العرب من جماع القبائل ؛ ليفضّ بهم مكة ، ويغزوها ، فكيف يمكن أن يقبل العرب دخول الأحباش ليكونوا القاعدة الصلبة للدعوة، وذكريات قريش عن الحبشة مرّة منذ عام الفيل . لكنّ ثقيفاً لا تقل أصالة عن قريش فى الحسب والنسب والمنعة ، وهى أنسب ما يكون لتكون البديل عن مكة ، فلا يلى مكة فى الأهمية عند العرب إلا الطائف ، وفى الطائف أقدس أصنام العرب بعد الكعبة وهو اللات، وبها يحلف العرب . فلقد كان اختيار القيادة النبوية للبديل أوفق اختيار .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤١٩ ، ٤٢٠ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٥٧٧ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٩٧ (متفرقات).

ثانيتهما : لأول مرة وفى هذه المرحلة الجديدة نجد عنصر طلب النصرة ، فلقد كان رسول اللّه ﷺ يدعو القبائل ويحضر مواسم العرب قبل هذه المرحلة ، غير أن هذه الدعوة كانت محصورة فى الدعوة إلى الإسلام. بل يمكن القول: إن الرسول ﷺ لم يطلب النصرة إلا فى هذه المرحلة ، وكانت الحماية والنصرة السابقة بناءً على عرض المشركين وليست بناءً على طلبه. فأبو طالب هو الذى قاد هذه المرحلة، وحمل لواء نصرة ابن أخيه وجمع على هذا الرأى بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وفشل فى ضم بنى أمية وبنى نوفل إلى هذا الحلف، ونفقه من هذه الرحلة النبوية المباركة أصول الحركة السياسية للحركة الإسلامية. فعندما تسد أمامها المنافذ التى تنطلق منها ، وتصل إلى الطريق المسدود فى مكان ما ، فمن واجبها أن تبحث عن قاعدة جديدة للانطلاق ، تحمل المؤهلات المناسبة للقاعدة الأولى .

وهذا ما لاحظناه فى بعض فضائل الحركة الإسلامية اليوم وقد سدت منافذ الجهاد أمامها ، حيث حملت السلاح ثائرة ضد الطغيان الحاكم فيها، لجأت إلى بديل طبيعى هو الأرض المجاورة ، حيث فتحت هذه الدول أبوابها لإيواء المهاجرين المسلمين ، واستطاعت الحركة الإسلامية أن تتابع جهادها لمقاومة الطاغوت الكافر منها .

ولكن رسول اللّه ﷺ ووجه بأعنف رد تلقاه داعية فى الأرض ، بعد أن بذل جهداً مضنياً فى محاولة إقناع قادة ثقيف ، وبعد أن أمضى عشرة أيام يتصل بكل ثقيف أصولاً وفروعاً ، لكن دونما جدوى ، فلم يأذن اللّه تعالى بالفرج بعد .

ونلاحظ حرص رسول اللّه ﷺ على الجانب السياسى فى الموضوع حين طلب من قادة ثقيف كتمان الأمر ، لما له من مضاعفات خطيرة فى مكة ، غير أن هؤلاء الزعماء نكثوا عهدهم وأغروا سفهاءهم وعبيدهم بإيذائه . ولم يثن هذا الإيذاء رسول اللّه ﷺ عن مهمته كداعية . بل عرض عليه من ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، فأبى عليه الصلاة والسلام قائلاً : « إنى لأرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يقول : لا إله إلا اللّه » . إن مهمة السياسى أن ينتصر ، أما مهمة الداعية أن تنتصر دعوته ، وحين يخير بين الأمرين فيختار دعوته على شخصه ، وكم من الدعاة بحاجة إلى أن يتعمق هذا المعنى فى نفوسهم.

إننا لا يمكن أن نتصور مثل هذه النماذج فى الوجود ، ولكن لنحاول الارتفاع إلى أفقها السامى ، فأقبح رد وألأم معاملة تصل إلى الحد الذى ذكرته الروايات

(رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً) . ومع ذلك يأتيه العرض من ربه تعالى أن ينتقم له ويثأر له . وليس عرضاً من حليف أرضى ، ولا من شيطان مريد بل من رب العالمين ، ومع هذا كله فيملك الخيار ويرجو ربه أن يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا اللّه .

إن المرء ليعجز عن تصوير هذا السمو البشرى مهما كان مستواه ، بل يكاد يعجز عن تصوره . وبقى مع هذا لنا من هذا الدرس ألا تغيب الدعوة عن أذهاننا لحظة من اللحظات. وأن يكون رضا اللّه تعالى هو الذى يحرك مواقفنا جميعها ، فلم يشغل بال رسول اللّه ﷺ الأذى الذى لحق به كما ذكره : « إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدوٍ ملكته أمرى » بمقدار ما كان يشغله أن يكون هذا الأذى دليلاً على غضب اللّه تعالى عليه: « اللهم إن لم يكن بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى » . وكل الذى كان يرجوه من ربه جلّ وعلا أن يرفع عنه هذا السخط إن كان قد وقع: « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل علىَّ غضبك أو تحل علىَّ سخطك . . . » .

وسيبقى الأفق الأعلى الذى تحاول البشرية أن ترقى إليه، وبخاصة الدعاه إلى الله ، ألا ينسوا هدفهم أبداً. ويذكروا دائماً أن الهدف الأول عندهم نصر دعوتهم لا نصر أشخاصهم ، وألا يكون الثأر والانتقام هو الذى يحركهم ، ولو وقف الدعاة اليوم مليا أمام هذه الصورة ، وطُلب منهم أن يقبلوا إسلام أعدائهم الذين يحاربونهم لما كان بإمكانهم أن يتصوروا هذا الواقع، بله أن يقبلوه، إذ إن الشىء الذى يحركهم الآن أو يمكنهم أن يقبلوه فقط هو الثأر والانتقام من أعداء اللّه ، فليراجعوا قلوبهم وليصححوا مواقع نفوسهم ، بحيث لا يكون حظهم من الدنيا إلا حظ عقيدتهم ، وليكن لهم من رسول اللّه ﷺ الأسوة الحسنة الذى يرتفع فوق عواطفه ، ولا يكون له هدف إلا انتصار الدعوة وبلوغها الآفاق حتى تكون كلمة اللّه هى العليا ويكون الدين كله للّه .

السمة الثانية

طلب الإجارة من العدو فى مكة

(ذكر ابن إسحاق أن رسول اللّه ﷺ لما أراد أن يدخل مكة بعد رجوعه من الطائف أرسل إلى الأخنس بن شريق :أأدخل فى جوارك ؟ فقال : إنى حليف ، والحليف لا يجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه على ذلك) .

(وأقام رسول اللّه ﷺ بنخلة أياما ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ ـ يعنى قريشاً ـ فقال : « يا زيد، إن اللّه جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن اللّه ناصر دينه ومظهر دينه » . ثم انتهى إلى مكة ، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدى: أدخل فى جوارك ؟ فقال: نعم ، ودعا بنيه وقومه فقالوا: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت،فإنى قد أجرت محمداً، فدخل رسول اللّه ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهيجه منكم أحد . فانتهى رسول اللّه إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته)[1] .

لئن كانت رحلة الطائف ذات هدفين هما الدعوة والنصرة، فلاشك أن الموضوع محصور الآن فى طلب الإجارة والحماية من زعماء مكة . ونلاحظ فى هذه الرواية إشارة إلى أن أهل مكة أخرجوا رسول اللّه ﷺ كما يقول زيد رضي الله عنه : (كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟). وكانت ثقته ﷺ بربه أن فرج اللّه تعالى قريب وخاصة عندما تشتد المحنة ويعظم البلاء .

والأخنس بن شريق من بنى زهرة وبتدقيق نسبه نجد أنه من ثقيف وحالف بنى زهرة . فتنصل الأخنس من الإجارة بقوله: إنى حليف والحليف لا يجير . فلابد لمن يجير أن يكون نسبه من صميم القبيلة حتى تقبل إجارته. ثم بعث إلى سهيل ابن عمرو فتنصل من الإجارة بقوله : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فسهيل بن عمرو يلتقى مع رسول اللّه ﷺ من حيث النسب فى لؤى وفى لؤى

(١) مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٢٥ .

يفترق بنو كعب بن لؤى عن بنى عامر بن لؤى . وبنو كعب من لؤى أوسط نفساً وأعلى كعباً من بنى عامر ، فلا يجير الأدنى على الأعلى .

ثم طلب الإجارة من المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل بن عبد مناف ، وهم الفرع الثالث من بنى عبد مناف ، إذ الفروع الأربعة هى : بنو هاشم وبنو عبد شمس وبنو المطلب وبنو نوفل . ويعلم المطعم بن عدى خطورة الإقدام على هذه المغامرة . فقد يعادى قريشاً كلها من أجل هذه الإجارة ، إذ أى اعتداء يقع على محمد ﷺ لابد أن يرد هذا الاعتداء ، ولو أدى الأمر إلى حرب بينه وبينهم .

ونعلم كذلك حرص المطعم بن عدى على ألفة قومه ، حين لام أبا طالب لعدم قبوله تبادل محمد وعمارة بن الوليد، إذ قال له: واللّه يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ،وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل شيئاً ، فأجابه أبو طالب : واللّه ما أنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك .

والمطعم أمام هذا الموقف العصيب ، وأمام معاداة قومه بالاستجابة لطلب محمد بن عبد اللّه كان يمكن أن ينتصل من الإجارة كما تنصل غيره . لكنه وقف موقفاً مشرفاً حفظه له التاريخ حيث سلَّح بنيه جميعاً وحضر بهم إلى الكعبة بالسلاح معلناً إجارة محمد بن عبد اللّه ، ودخل رسول اللّه ﷺ وزيد بن حارثة فطافا بالكعبة بحماية السلاح . ومضى إلى بيته ﷺ بحمايتهم كذلك ، وكان هذا صفعة كبيرة لقريش،وتحدياً لمشاعرها ، لكنها لم تشأ أن تخسر بنى نوفل إلى الأبد إلى صف محمد كما خسرت بنى المطلب وبنى هاشم،فسكتت على مضض .

وحفظ رسول اللّه ﷺ هذا الصنيع للمطعم بن عدى ، فقال فى بدر وقد أسر من قريش سبعين من صناديدهم:لو كان المطعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء النتنى . وكم نحن بحاجة إلى أن نفقه هذا المعنى فى حركتنا الإسلامية المعاصرة .

إن المطعم بن عدى كافر لا يختلف فى عقيدته أبداً عن بقية قريش ، وإن أبا جهل وأبا لهب كافران كذلك مثل المطعم بن عدى . لكن الفرق بين النوعين واضح : كافر مسالم مناصر للمسلمين ، وكافر عدو محارب . ورسول اللّه ﷺ هو الذى يطلب هذه الإجارة وهذه النصرة . ويتنقل فى مكة تحت حماية السيوف الكافرة . وها هو عليه الصلاة والسلام يعلن أنه سيطلق سراح سبعين كافراً من صناديد قريش لو طلبهم منه المطعم بن عدى الكافر .

إن رسول الله ﷺ يربينا على أن نرد المعروف لأهله ولو كانوا كفاراً ، ويعلمنا أن نحفظ الود لأهله . ولو كانوا عبدة أصنام وأوثان ، ويربينا كيف نفرق بين الكافر الذى يحمينا وبين الكافر الذى يقتلنا .

ونخلص بعد ذلك إلى طبيعة هذه المرحلة التى أسميناها مرحلة قيام الدولة . فنجد أنها مرحلة طلب النصرة ، ابتداءً من ثقيف ، فالمطعم بن عدى ، فالقبائل الأخرى .

ونلاحظ هنا أن حماية المطعم ـ على ما يبدو ـ كانت محصورة على الحماية الشخصية، لا على حرية الدعوة ، ومن أجل ذلك رأينا رسول الله ﷺ يبحث عن موطن آخر يستطيع أن ينطلق منه للدعوة فى سبيل الله .

السمة الثالثة

طلب المنعة والحماية لتبليغ الدعوة من القبائل

كان رسول الله ﷺ منذ أن جهر بالدعوة بعد ثلاث سنين من البعثة يرتاد المواسم وأسواق العرب ويدعو الناس للإيمان بالله « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ويدعوهم إلى نبذ الأصنام والأوثان . أما فى موسم هذا العام ـ أعنى السنة العاشرة للبعثة ـ فقد اختلفت الصيغة عن ذى قبل .

يقول المقريزى فى إمتاع الأسماع : (ثم عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم ،ودعاهم إلى الإسلام وهم بنو عامر ، وغسان ، وبنو فزارة ، وبنو مرة ،وبنو حنيفة ، وبنو سليم،وبنو عبس ، وبنو نصر ، وثعلبة بن عكابة ، وكندة ، وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو الحيسر أنس بن أبى رافع ، وقد اقتص الواقدى أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة ، ويقال : إنه ﷺ بدأ كندة فدعاهم إلى الإسلام ، ثم أتى كلباً ، ثم بنى حنيفة ، ثم بنى عامر، وجعل يقول : « من رجل يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى؟ » هذا وعمه أبو لهب وراءه يقول للناس : لا تسمعوا منه فإنه كذاب)[1] .

إنها دعوة صريحة بطلب الحماية من القبائل العربية لتبليغ دعوة الله

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٠ ، ٣١ .

عز وجل، ويفهم من هذه الدعوة أنه ليس من الضرورى أن تسلم القبيلة ، إنما المطلوب هو أن تؤمن الحماية اللازمة له لتبليغ دعوة اللّه عز وجل، كما أن الذين هيؤوا له الحماية من قبل لم يكونوا مؤمنين جميعاً . بل كان أبو طالب على رأسهم ولم يدخل فى الدين الجديد ، والقبائل التى عرض عليها الإسلام، وطلب منها النصرة فى العام الحادى عشر وبعد هى : بنو عامر، وشيبان بن ثعلبة ، وبنو كلب ، وبنو حنيفة ، وبنو كندة . أما بنو حنيفة فلم يكن أقبح رداً منهم . وأما بنو كلب فقد أتى بطناً منها وقال لهم : «إن اللّه قد أحسن اسم أبيكم » . فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ، وأما بنو كندة فلم يقبلوا منه كذلك ، وبقى لدينا بنو عامر بن صعصعة، وبنو شيبان بن ثعلبة ، وهما بيت القصيد فى هذه الفقرة .

قال ابن إسحاق : (. . . وأنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى اللّه عز وجل، وعرض عليهم نفسه فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس :واللّه لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك اللّه على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : « الأمر إلى اللّه يضعه حيث يشاء » .

فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك اللّه كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه) (١) .

وكان اللقاء الثانى مع بنى شيبان : (. . . وزاد قاسم بن ثابت تكملة للحديث قال : ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم . قال على:وكان أبو بكر فى كل خير مقدماً . فقال: ممَّن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة.فالتفت أبو بكر إلى رسول اللّه ﷺ وقال : (بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر فى قومهم) وفيهم مفروق بن عامر ، وهانئ بن قبيصة ،ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك ، ومفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً ، وكان له غديرتان تسقطان على تريبتيه فكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر . فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ قال مفروق : إنا لنزيد عن الألف ، ولن تُغلب الألف عن قلة .

قال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق : علينا الجد والجهد ، ولكل قوم حد.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

قال أبو بكر : وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد عن الأولاد والسلاح على اللقاح . والنصر من عند اللّه يديلنا مرة ويديل علينا أخرى . لعلك أخو قريش ؟!

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول اللّه فها هو ذا ؟ فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . فإلامَ تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول اللّه ﷺ فقال : « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأنى رسول اللّه وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر اللّه ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، واللّه هو الغنى الحميد ».

فقال مفروق : وإلامَ تدعو يا أخا قريش ؟

فقال رسول اللّه ﷺ : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ...** ﴾ الآية [الأنعام : ١٥١] .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول اللّه ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ...** ﴾ الآية [النحل : ٩٠]

فقال مفروق : دعوت يا أخا قريش واللّه إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذَّبوك وظاهروا عليك . وكأنه أراد أن يشرك فى الكلام هانئ بن قبيصة ، فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أنَّ تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لوهنٌ فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن ترجع ونرجع ، وتنظر وننظر .

وكأنه أحب أن يشرك فى الكلام مثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا ، فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا إياك فى مجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر . وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة .

فقال رسول اللّه ﷺ : « ما هذان الصريان ؟ » .

فقال : أنهار كسرى ومياه العرب . فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول . وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً . وإني أرى أن هذا الأمر مما تكرهه الملوك . فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول اللّه ﷺ : « ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، فإن دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه . أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم اللّه أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون اللّه وتقدسونه ؟! » .

فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا .

فتلا رسول اللّه ﷺ : ﴿ **يا أيُّها النبيُّ إنا أرْسَلْناك شاهِداً ومُبشراً ونذيراً . وداعياً إلى اللّه بإذْنه وسِراجاً مُنيراً** ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦] .

ثم نهض النبى ﷺ فأخذ بيدى أبى بكر فقال : « يا أبا بكر ، يا أبا حسن ، أية أخلاق فى الجاهلية ـ ما أشرفها ـ بها يدفع اللّه بأس بعضهم عن بعض ، وبها يتحاجزون فيما بينهم» . قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبى ﷺ، وكانوا صُدُقاً صُبُراً)[1] .

إن من نعمة اللّه علينا أن نجد بين أيدينا نصوصاً عن أحلاف لم تتم ؛ لأنها تكون هادية لنا على الطريق نتعرف من خلالها على ما يحل لنا وما لا يحل فى مجال المعاهدات والأحلاف السياسية ، ولو لم تتعثر هذه المباحثات ، لم نتعرف على حدود الحركة السياسية النبوية التى نتوخى من خلالها حدود حركتنا اليوم .

أما المحادثة الأولى مع بنى عامر بن صعصعة ، فقد تعثرت لسبب واحد هو أن رسول اللّه ﷺ لم يعدهم بأن يكون لهم الحكم من بعده،وهى التى جعلتهم يرفضون إيواءه ونصره كما قال زعيمهم بيحرة بن فراس : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك اللّه كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك، وبذلك خط لنا

---

(١) مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٣٤ . وقد أورده ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ١٥٧ـ ١٥٩ وقال فيه : « هذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم وفصاحة العرب » .

رسول اللّه ﷺ خطا، إنه مهما كانت حالة الضعف لدى الحركة الإسلامية فلا يحق لها أن تفاوض على إقرار غير المسلمين على باطلهم والاعتراف لهم بحق الحكم بغير شريعة الله فالأمر ليس ملكا يورث إنما هو شريعة تسود .

ولابد من التفريق بين الأمر الواقع، وبين إقرار المسلمين به وموافقتهم عليه، وأن يكون اسم الإسلام بعد ذلك . وليست القضية هى حكم أشخاص بذواتهم وأعيانهم فى الإسلام إنما هى حكم من ينفذون شريعة اللّه، وعندما يدخل الناس فى دين اللّه، ويحقق اللّه تعالى موعوده بالنصر ، فلا يحق لفئة مشركة أن تتسلط على الحكم والسلطة ، بحكم أنها كانت تناصر هذه الدعوة وتساندها ، وكثيراً ما تواجه الحركة الإسلامية أثناء مسارها الطويل بفريق أو فئة أو دولة تساندها وتحالفها لفترة مؤقتة ، وتشترط عليها لإيصالها للحكم أو مساعدتها فى ذلك أن تكون شريكتها فى السلطة ، فيحكم الأرض بوقت واحد إسلام وجاهلية أو تعاقب بين إسلام وجاهلية باسم العقد أو الحلف وهذا مرفوض فى الميزان الإسلامى .

يمكن للحركة الإسلامية أن تقبل حماية من مشرك فى حالة ضعفها وعدم تمكنها ، لكن أن يعطى هذا العدو الحق فى أن يسود ويحكم باسمها ومن ورائها ويستغلها مطية لمآربه فهذا مرفوض فى الميزان الإسلامى .

وماذا نجد فى المحادثات الثانية مع بنى شيبان بن ثعلبة .

لقد ابتدأ أبو بكر رضي الله عنه فى المفاوضات بعد أن عرف أنه مع زعماء بنى شيبان، لقد سأل عن العدد وسأل عن المنعة وسأل عن الحرب ، وتوسم الصدق فى الجواب من القوم فكان العدد يزيد عن الألف ، وكانت الحمية متوفرة والاستعداد للقتال قائم كما قال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند اللّه .

فإذا كان رسول اللّه ﷺ يريد المنعة ، فها هنا مكانها ، وقريش لا تزيد عن الألف لو تبنت منعة رسول اللّه ﷺ ، فلقد أوعبت ألفاً فى بدر ، ولكن المفاوضات ابتدأت فى حلقة جديدة .

فلقد كان مفروق من الذكاء واللباقة ما جعله يكتشف من خلال الأسئلة أن السائل رسول اللّه ﷺ،وهو أخو قريش وصاحب مكة ، وكان من العقل والحنكة

بحيث يتجاهل كل الأراجيف عن رسول اللّه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وتوجه لرسول اللّه ﷺ يسأله عن دعوته ودينه .

ونتعلم من إجابات الرسول ﷺ لمفروق فن الدعوة للعدو إذا صح التعبير . فكان لابد من المعالم الأولى للدعوة : «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأنى رسول اللّه » وهى مفرق الطريق بين الإسلام والكفر ، وهى التى حاربتها قريش عشر سنوات،ورفضت أن تقولها . ولم يكتف رسول اللّه ﷺ بذلك ،بل حدَّد هدف اللقاء ، وهدف الأسئلة السابقة التى تقدم بها أبو بكر رضي الله عنه «. . . وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ».

ولا شك أنه سيحاك فى الذهن مباشرة أسئلة كثيرة عن سبب اللجوء إليهم دون أن يمتنع بقومه قريش فقال ﷺ متابعاً :«. . . فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر اللّه وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق واللّه هو الغنى الحميد » .

ولاشك أن مفروقاً قد انشرح صدره لهذا الحديث فأحب أن يتعرف على معالم أخرى لهذا الدين الجديد فكرر السؤال : وإلامَ تدعو يا أخا قريش ؟ واختار رسول اللّه ﷺ الحديث عن عزة القيم والأخلاق التى تفتخر بها العرب ، ولو كانت تخالفها فى كثير من الأحيان: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

إن الجو وإن كان جو محادثات ومباحثات سياسية . لكن الدعوة إلى اللّه هى الأصل، وكسب القوم إلى الإسلام أكبر بكثير من حمايتهم لرسول اللّه وهم لا يؤمنون برسالته ، ولعل مفروقاً حرص أكثر على إيضاح هذه الدعوة ، وراعه بيانها وفكرها فاستزاد قائلاً: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

واختار رسول اللّه ﷺ الآية الجامعة الفذة المانعة : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾

[النحل : ٩٠]

إن قمة القيم الأخلاقية والسياسية قد عرضت فى هذه المفاوضات ، وما تمالك مفروق أن قال: دعوت واللّه يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

فلقد صدَّق مفروق مقالة رسول اللّه ﷺ،لكنه لا يستطيع أن يقطع فى هذا

الأمر، فأحال الأمر إلى شيخهم وصاحب دينهم هانئ بن قبيصة . ولعل هانئاً لم يجرؤ على اتخاذ خطوة حاسمة فى أمر الإسلام . أو أنه كان مقتنعاً بدين الجاهلية أكثر من غيره، فتفلَّت من الأمر وأجَّله وسوَّف فيه، وتذرَّع بالحكمة دون العجلة ، وبذلك انتهت الخطوة الأولى دون طائل.

وآلم مفروق هذا الموقف ، وأحال هانئ الكلام على المثنى شيخهم وصاحب حربهم ، ولاشك أن المثنى من ظاهر حديثه يبدو أنه قد تأثر بموقف النبى ﷺ ، وحاول أن يقطع فيما هو من اختصاصه ، وقدم الصورة كاملة فى مجال الحماية ، ولخص الموقف بقوله : فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا . وذلك بعد أن أشار إلى أن هذه الدعوة والرسالة مما يكرهها الملوك .

وكان جواب رسول اللّه ﷺ فى منتهى الحكمة والحصافة وبمنتهى الوضوح كذلك : ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق . فإن دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه . وبذلك انتهت المفاوضات دون تحالف ؛ لأن بنى شيبان قدموا الحماية حسب إمكاناتهم على العرب فقط. أما كسرى فلا، فلقد عاهدوه ألا يحدثوا حدثاً أو يؤووا محدثاً، ولعل كسرى يغضب أشد الغضب لو علم بذلك ، فهو أمر تكرهه الملوك .

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود ، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضد كسرى لو أراد القبض على رسول اللّه وتسليمه ، ولن يخوضوا حرباً ضد كسرى لو أراد مهاجمة محمد رسول اللّه وأتباعه ، وبذلك فشلت المباحثات ، وأحب رسول اللّه ﷺ أن يغزو قلوب بنى شيبان بأن حدَّثهم عن موعود اللّه بنصره ، وأنهم ورَّاث الأرض من دون المشركين إنهم آمنوا باللّه ورسوله وسبحوه ، وهذا هو الهدف الوحيد البعيد الذى تحقق ليبقى طريقاً مفتوحاً للقاءات القادمة :

ـ «أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم اللّه أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون اللّه وتقدسونه ؟» فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا.

عندما يكون الأصل فى التحالف السياسى هو النجاح أو تحقيق فوزٍ على العدو ، أو بتعبير أدق عندما يكون الميزان هو أن الغاية تبرر الواسطة ، فتعتبر الوقوف عند هذه الجزئيات خطلاً سياسياً ، أما عندما يكون الهدف هو انتصار الدعوة والعقيدة فالتخلى عن جزئية واحدة منها هو تخلٍ عنها كلها.

السمة الرابعة
فشل المساومات

ولنقف عند هاتين النقطتين :

أ ـ الأمر إلى اللّه يضعه حيث يشاء :

تعهد واحد طُلب من رسول اللّه ﷺ فرفضه، فماذا تستفيد الحركة الإسلامية من هذا الموقف وهى فى حالة الضعف ؟

إن الحركة الإسلامية حين تفاوض عدواً على مستقبل الحكم أو تُدْعى إلى التحالف معه إذا استطاعت أن تصل مع هذا العدو إلى أن يكون الأمر للّه يضعه حيث يشاء من خلال بنود التحالف، فلها حرية الاختيار فى ذلك ، وحتى تتوضح الصورة أكثر ، نجد أن بإمكان الحركة الإسلامية أن تتحالف مع عدوٍ على إسقاط عدوٍ آخر ،ويكون الحكم بعد ذلك للّه يضعه حيث يشاء ، والتعبيرِ العملى لهذه الصيغة أن هذا التحالف الذى أسقط ذلك العدو ينتهى نصه بسقوطه ، وكل حليف سياسى بعد ذلك يعمل بجهده الخاص للوصول إلى الحكم بدون أن يكون بين هؤلاء الحلفاء تعهدات لبعضهم بتبادل الحكم أو الاشتراك فيه . فنرى أن هذا الخط من صميم التحرك الإسلامى السياسى .

وهذا المفهوم يقود إلى نقطتين شائكتين ، ولكن لا مناص من التعرض لهما وهما :

١ ـ هل من حق الحركة الإسلامية أن توقع على تحالف بأن يكون الحكم ديمقراطياً ؟

٢ ـ وهل من حق الحركة الإسلامية أن توقِّع على تحالف بقيام حكومة مؤقتة ومؤتلفة ؟ ونحاول الإجابة على السؤال الأول :

فقد يتبادر إلى الذهن مباشرة أن يكون الجواب بالإيجاب لأن النظام الديمقراطى لا يحدد فرداً أو جهة يخولها استلام السلطة ، وهذا يعنى أن الأمر للّه يضعه حيث يشاء. إننى أستبعد جواز ذلك [1] ـ واللّه أعلم ـ وذلك للأسباب التالية :

(١) والذين يجيزون التحالف على القبول بالنظام الديمقراطى وسيلة للحكم ، ينطلقون من فكرة أن الإسلام لا يفرض نفسه بالقوة على الناس ، وأن على الدعاة أن يعملوا لكسب قلوب الناس وثقتهم من خلال الدعوة. وبعدها تأتى مرحلة الدولة التى تقوم على حب الناس لهم وثقتهم بهم ليكونوا حكاماً لهم .

أولاً :النظام الديمقراطى يقتضى من الحركة الإسلامية أن تقبل بالفئة أو الحزب الذى ينتخبه الشعب ، وأن تبادر فتعترف بشرعيته طالما فاز بالأكثرية ، وأن تخضع لنظامه،وقد يكون هذا الحزب أو التجمع معادياً للإسلام،أو لا يتبنى الإسلام على أحسن الاحتمالات،وخروجها عليه خروج على الشرعية التى أعلنت الالتزام بها ، فهى تضطر أن تنقض عهداً أبرمته، ولا يحل فى ديننا إلا الوفاء ، وحقيقة هذا الميثاق حين توقعه الحركة الإسلامية ليس ضمن إطار الأمر للّه يضعه حيث يشاء ، بل ضمن إطار القبول بمشيئة الفئة الغالبة ، ولو كانت غير شرعية بميزان اللّه .

إنه صحيح أن كل شىء بمشيئة اللّه،لكن مهمتنا أن نسعى لإقامة شريعة اللّه ونقاوم أى نظام باطل فنحقق مشيئة اللّه تعالى ﴿ **لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الْباطِلَ ولو كرِهَ المُجْرِمُون** ﴾ [الأنفال : ٨] ، ونفر من قدر اللّه إلى قدر اللّه لا أن نعلن قبولنا بشرعية أكثرية لا ترضى بشريعة اللّه أو إننا سنغدر بالمواثيق التى أعطيناها ولا يحل فى ديننا الغدر .

ثانياً : ولنفرض جدلاً أننا قبلنا بالنظام الديمقراطى ، فإن الشعب هو مصدر التشريع فى هذا النظام ،وقبولنا بذلك يعنى قبولنا بكل تشريع لا يرضاه الإسلام ، واعتباره شرعيا فى الوقت نفسه طالما إنه صادر عن هيئة تشريعية منتخبة .

ثالثاً : ولنفرض جدلاً أن الحركة الإسلامية اشترطت قبول نظام الإسلام حتى تقبل النظام الديمقراطى،فهى فى هذه الحالة قد قبلت بالمتناقضات فى البنود نفسها، تجعل حجة لخصوم الإسلام عليها فى المستقبل أن هذا الحكم وهو نظام الإسلام لا يمثل رأى الشعب ، وبالتالى لا يجوز أن يفرض عليه .

ب ـ إن دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه :

إن النهج الإسلامى السياسى المنبثق من هذه الفقرة هو ألا يبرم إلا التحالف المؤدى للأهداف المرسومة ، إنه يرسم الاستراتيجية السياسية للحركة الإسلامية ، إن التحالف المبنى على عاطفة عارضة أو مصلحة جزئية ، هو على المدى البعيد طمس للخط الإسلامى الواضح، وهذه الفقرة تدعونا إلى الملاحظات التالية :

١ ـ عبقرية التخطيط السياسى فلا يكون استجابة لنزوة بنزوة مماثلة ، بل يكون ضمن استراتيجية محددة الأهداف واضحة الخطى ، وخطة محكمة تدرس سائر الاحتمالات المتوقعة من الحليف الآخر .

٢ ـ مرونة العمل السياسى ، فعندما أكون واضح الهدف أسلك مع الخصم الذى أود محالفته كل سبيل يمكن أن يوصلنى إلى الهدف المطلوب ، ولا أدع الفرصة تفوتنى لتحقيق هذا الهدف .

ويكفى أن نرى عظمة هذه المرونة فى أنها استوعبت معظم القبائل العربية وبحثت معها الأمر ، واستوعبت الزمان والمكان . فالمواسم كلها مسرح للعمل السياسى الإسلامى لتحقيق الهدف المحدد الواضح ، أسواق العرب بل أماكنهم ووفودهم هى مغزوة دائماً بالنشاط الإسلامى السياسى . إن كل قبيلة غير قريش مؤهلة للمفاوضات والتحالفات فكندة فى الجنوب، وغسان فى الشام ، وحنيفة فى اليمامة ، وشيبان فى العراق ، كل هذه القبائل التى أتت وفودها للمواسم كانت مسرحاً للعمل السياسى الإسلامى ، بل إن قريشاً عرضة للتفاوض مع بعض قادتها كما وجدنا مع المطعم بن عدى .

٣ ـ عبقرية المفاوض السياسى : وحين يكون الهدف واضحاً والمفاوض مرناً ذكياً تقياً عبقرياً ، فيمكن أن تزج به الحركة الإسلامية فى هذا الخضمِّ لا تخشى بعون اللّه عليه من أى طارئ « لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » .

وحين يفقد المفاوض السياسى واحدة من الصفات المذكورة فسوف يخسر الجولة مع خصمه فلابد أن يحمل الوفد المفاوض هذه الصفات ؛ المرونة للقدرة على تقليب وجهات النظر ، وعرض الحلول المتنوعة اللامتناهية والذكاء للقدرة على التخلص من أى مأزق يمكن أن يزجَّه الخصم به .

والتقى لتبقى حركته ضمن الإطار الشرعى الذى حدده له الإسلام ، وإطار المصلحة التى حددتها الحركة ، والعبقرية لفل سلاح الخصم ودفعه إلى الهدف الذى يريده المفاوض الإسلامى .

ولننظر إلى هذه الفقرة بمنظار آخر : « إن دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه » .

لقد كانت هذه الكلمة رداً على المثنى بن حارثة حين عرض على رسول اللّه ﷺ حماية على مياه العرب دون مياه الفرس ، وصاحب النظرة السياسية العجلى يرى أن تفويت هذه الفرصة خطأ سياسى،لكن الذى يسبر أغوار السياسة البعيدة ، يرى بعد النظر الإسلامى النبوى الذى لا يسامى .

إن المثنى قد ألمح إلى أن هذا الأمر تكرهه الملوك ، وإن موقع الدعوة بجوار فارس تجعلها سهلة المتناول فى كل لحظة منها . وإن العهود والمواثيق المقيدة لشيبان تجعلهم أعجز من أن يستطيعوا حماية هذا الرسول وهذا الدين الجديد من بطش كسرى وسلطانه . إن التحالف مع الخصم الأقوى يكون فى معظم الأحيان لصالح هذا الخصم . فموقع شيبان إذن غير مناسب ليكون مركزاً للدعوة الجديدة ، وعهود شيبان من جهة ثانية تشل إمكانية التحرك الإسلامى للدعوة . وكراهة الملوك لهذه الدعوة التى تدعو لإخراج الناس من عبادة العباد لعبادة اللّه، عنصر غير مشجع لوجودها بجوارهم بحيث تمس مصالحهم وتوقع الاحتكاك بينهم وبين الحركة الإسلامية ، ويكفى أن نذكر نقطتين اثنتين توضحان عمق النظرة السياسية النبوية فى هذا المجال :

أولاهما : إن الفرس كانوا فى أوج انتصاراتهم بعد أن هزموا امبراطورية الروم وأخذوا الصليب الأكبر منهم .

ثانيتهما : إن كسرى عندما وصله خطاب رسول اللّه ﷺ بعد قيام دولة الإسلام بست سنوات مزق الخطاب النبوى ، وبعث من يحضر له محمداً حياً أو ميتاً ، علماً بأنه قد ذاق مرارة الهزيمة القاتلة من الروم قبل أربع سنوات .

فما أحوجنا ونحن نود للحركة الإسلامية تحركاً سياسياً هائلاً ؛ لأن نحكم الهدف أولاً ، ونحكم الخطة ثانياً ، ونكون أدرى ما نكون بالعدو ثالثاً ، وندفع بالعبقرى السياسى للحركة رابعاً ، ونطلب النصر من اللّه سبحانه وتعالى قبل وبعد بذل هذه الإمكانات .

السمة الخامسة

توجيه الأنظار لمركز الانطلاق

قال ابن إسحاق : (فلما أراد اللّه عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول اللّه ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد اللّه بهم خيراً .

لما لقيهم رسول اللّه ﷺ قال لهم: « من أنتم ؟ » قالوا: نفر من الخزرج.

قال: « أمن موالى يهود ؟ » قالوا : نعم . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى اللّه عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع اللّه لهم به فى الإسلام ، أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم فلما كلَّم رسول اللّه ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى اللّه ، قال بعضهم لبعض : تعلموا واللّه إنه للنبى الذى توعَّدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ! فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم اللّه بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم اللّه عليه فلا رجل أعزَّ منك . ثم انصرفوا عن رسول اللّه ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا . وهم فيما ذكر لى ستة نفر من الخزرج)[1] .

(فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول اللّه ﷺ)[2] .

المحادثات تفشل مع بنى شيبان ، فيهئ اللّه تعالى لرسوله هؤلاء النفر من الخزرج من سكان يثرب ولقد كان لرسول اللّه ﷺ تجربة سابقة مع الأوس . فلقد جاء وفد لقريش قبل عام ليقيم تحالفاً مع قريش ضد الخزرج فدعاهم رسول اللّه إلى الإسلام فلم يستجب لدعوته إلا فتىً يافع رزموه وانتهروه قائلين له : لقد جئنا لغير هذا . وحيث لم تنجح محاولات الأوس فى التحالف ، وقعت حرب بعاث بعد ذلك .

والواضح أن اللقاء كان عابراً بين رسول اللّه ﷺ وهؤلاء النفر بدليل دعوتهم إلى الجلوس كى يكلمهم، وهذا قدر اللّه الذى ساقه لدعوته هبة منه سبحانه. وتأكد رسول اللّه ﷺ من هويتهم بأنهم من موالى يهود، وهذا يعنى أن لا غرابة على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨ ، ٤٢٩ . (٢) المصدر نفسه ١ / ٤٣٠ .

أذهانهم الحديث عن اللّه تعالى وكتبه ورسله فيما يسمعونه دائماً من اليهود، وهو لا يطرق مسامعهم لأول مرة، فدعاهم إلى اللّه عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وقد كان الخزرج مهيئين نفسيا تهيئة تامة لسماع حديث الإسلام، فقد كانوا يحسون دائماً بالحسرة أمام اليهود. فهم أميون ليس عندهم رصيد يواجهون به اليهود ويقفون أمامهم مبهوتين لا يدرون ما يقولونه .

ومن جهة ثانية ، فالحديث عن النبى المرسل كان يملأ جو يثرب ، بل يهددهم اليهود به فما إن تناهى إلى سمعهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قالوا : واللّه إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فالداعية إذن لابد له من أن يستفيد من المناخ النفسى الملائم حين يدعو ، ويستفيد من الأرضية الثقافية لمن يدعوهم إلى اللّه .

ولأول مرة تسلم مجموعة كاملة ، ومن بلد ناءٍ تصلح أن تكون آساساً ومنطلقاً للدعوة ، خاصة وقد أبدت هذه المجموعة استعدادها لذلك قائلةً : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم اللّه بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم اللّه عليه فلا رجل أعز منك .

لقد وضعت بذرة أمل جديدة مع هؤلاء النفر الستة ، أن يمهد الجو لرسول اللّه ﷺ فى المدينة، وتذلل الخلافات، ويقوم هؤلاء الستة بالدعوة إلى اللّه هناك، فقد آمنوا وصدقوا.

ونلاحظ هنا أن رسول اللّه ﷺ لم يعرض عليهم طلب حمايته ونصرته حين دخلوا فى دين اللّه عز وجل ، بل توجه اهتمامه عليه الصلاة والسلام إلى انطلاق جديد لدين اللّه يحسن أن يكون مركزاً ممتازاً يغير مواقع الدعوة كاملة .

وقام النفر الستة بأعظم دور فى الدعوة لدين اللّه عز وجل فى صفوف الأوس والخزرج حتى فشا الإسلام فى المدينة ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول اللّه ﷺ . لعل هذه السنة التى مرت على الدعوة العام الحادى عشر للبعثة كانت أكثر بركة من الأعوام العشرة السابقة ، ولعل انتشار الإسلام فى هذه الأرض كان أكثر من انتشاره فى مكة خلال الأعوام العشرة السابقة .

منعطف جديد فى الدعوة بعد جهاد مضنٍ ، وصبر طويل ، تحقق على يد

هؤلاء النفر الستة حين وجد المناخ المناسب والجو الملائم للدعوة الجديدة .

ولم نسمع عن نشاطٍ جديد لرسول اللّه ﷺ فى خلال العام فى مقابلات مع القبائل الأخرى. بل تصمتُ أخبار السيرة خلال هذا العام إلى موسم العام القادم . ونفقه من هذا الانعطاف أن الأحوط والأقوى للدعوة هو الالتزام بمبادئها ، بينما تبقى الحماية التى لا ترتبط بالمبادئ لا تحقق الهدف البعيد للتمكين فى الأرض .

إن الخط الذى يُفَرِّقُ بين الطريقين خط ضئيل ، قد لا يدركه الناظر العجول . فالمرحلة المكية عندما تملك الدعوة الحرية الكاملة فيها فى ظل المبادئ الجاهلية ، لا تصل إلى مرحلة الحكم بما أنزل الله ، ومرحلة تطبيق المبادئ ، أما إذا كانت الحماية من أبناء الدعوة نفسها، فالطريق مهيئة لتنفيذ شرع اللّه عز وجل ، والتمكين فى الأرض .

ونصل من هذه الملاحظة إلى أن الهدف البعيد وهو إقامة حكم اللّه فى الأرض لن يتحقق فى ظل حماية جاهلية. كما تتصور بعض الحركات الإسلامية ، إنما يتحقق ذلك من خلال جنود الدعوة .

ونقول أخيراً : لابد من أن نحدد المدى الذى نصل إليه من خلال التعامل مع العدو أو من خلال الالتزام والجندية لمبادئ الدعوة ، وأن نعرف كيف نفرق بين الهدفين فلا نبنى نتائج هدف على هدف آخر .

السمة السادسة

البيعة الأولى وقيمها الجديدة

قال ابن إسحاق : (حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه بالعقبة ، وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسول اللّه ﷺ بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب ، منهم أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان)[1] . عن عبادة بن الصامت قال : (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول اللّه ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض الحرب ، على ألا نشرك باللّه شيئاً ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣١ ـ ٤٣٥ (مقتطفات) .

وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى اللّه عز وجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر)[1] .

قال ابن إسحاق : (فلما انصرف عنه القوم بعث رسول اللّه ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرئ بالمدينة . كان يصلى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض)[2] .

عام جديد يمر بعد اللقاء الأول ، ويحضر لمكة فى الموسم الجديد نفر من اثنى عشر رجلاً ، والجديد فى هذا الوفد هو أنه يمثل التجمعين الكبيرين الأوس والخزرج . فلن يكون إذن معارك قبلية يمثل الخزرج طرفها الإسلامى ، ويكون الأوس طرفها الجاهلى ، بل استطاعت هذه المجموعة النواة أن تتجاوز الدماء والثارات التى لم يمر عليها بضعة أشهر ، وتلتحم فى جماعة واحدة .

والذى يعنينا من هذه البيعة النقاط التالية :

١ ـ اتجه الخط السياسى الإسلامى كله للبناء الداخلى ، وكان التركيز على يثرب بالذات . وقد كان لهؤلاء النفر الاثنى عشر دور كبير فى بث الدعوة إلى الإسلام خلال هذا العام، كما يقول ابن إسحاق : (فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول اللّه ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول اللّه ﷺ) . فلقد توجه رسول اللّه إلى البناء الداخلى فى المدينة ، وإلى بث الفكرة فى صفوفها .

٢ ـ سميت البيعة بيعة النساء لأنها لم تشتمل على فكرة الحرب ، والحرب لا تكون إلا بعد البناء الفكرى والعقدى للإنسان ، وبعد أن يصاغ على ضوء الإسلام وقيمه يمكن أن يدعى المسلم إلى الجهاد. وإنها لثغرة كبيرة أن يندفع المرء إلى الجهاد ولما تتم صياغته الإسلامية . إن المفاهيم ستختلط فى ذهنه بين اندفاعه للجهاد فى سبيل اللّه وبين الحماس لنفسه أو لأهله أو لأرضه ، ومن أجل هذا كانت البيعة الأولى خالية من الحديث عن الحرب ، وكانت تجربة حية للدعوة قبل المعركة .

٣ ـ أما القيم التى تمت عليها البيعة كما ذكرها لنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه : (. . . على ألا نشرك باللّه شيئاً ، ولا نسرق ،ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ،

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣١ ـ ٤٣٥ (مقتطفات) .

ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف . . .) .

٤ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطور كبير جداً لصالح الإسلام هناك ، فبعد الحرب العنيفة فى بعاث استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصة الصراعات الدموية الداخلية ، ويحضروا معهم ستة جدداً فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعنى أنهم وفوا بالتزاماتهم التى قطعوها على أنفسهم فى محاولة رأب الصدع ، وتوجيه التيار فى يثرب ـ أوسها وخزرجها ـ للدخول فى الإسلام ، وتجاوز الصراعات القبلية القائمة .

٥ ـ وكان التطور الجديد الذى أثمرته بيعة العقبة هو بعث الممثل الشخصى لرسول اللّه ﷺ ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ ليشرف بنفسه على تطور الموقف ويقوم بتفقيه المسلمين هناك بهذا الدين الجديد .

٦ ـ واستطاع الدبلوماسى الإسلامى الأول فى المدينة بحكمته وحصافته وذكائه السياسى ـ بعد توفيق اللّه له ـ أن يجر أكبر قيادات الأوس إلى الإسلام ، أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وذلك خلال العام الجديد . ولم يبق فى بنى عبد الأشهل ـ رؤساء الأوس ـ رجل ولا امرأة ولا طفل إلا ودخل فى الإسلام . لقد أصبح التيار عارماً ، والاتجاه معبأ لقيام الثورة الإسلامية فى المدينة ـ إذا صح التعبير ـ وأصبحت مهمة القيادة تنظيم هذه الطاقات كلها لصالح المعركة .

٧ ـ ومع أن نصوص البيعة لا تحمل فى ثناياها حرباً أو معركة بل هى كما أطلق عليها المسلمون « بيعة النساء » لكنها تعنى تربية معينة ، وأرضية تقوم عليها المعركة . إن الالتزام الخلقى والسلوكى بالمبدأ ، وضبط الشهوات ، بأمر ربانى، يعنى أكثر من أمر :

فالأمر الأول : هو المفاصلة العقدية،والتميز الفكرى ـ لا نشرك باللّه شيئًا ـ وهذا يعنى عملياً إعلان الحرب من جانب واحد على هذا المجتمع ، وذلك بالثورة على دينه وعقيدته .

والأمر الثانى : هو المفاصلة السلوكية،فلا سرقة ولا زنا،ولا وأد لولد أو بنت ولا افتراء ببهتان. والذى يستطيع أن يطبق هذه المفاصلة السلوكية فى المجتمع الذى يعج بالزنا ويعُج بالبهتان المفترى ، هو مؤهل للجندية الحقيقية وقادر على تنفيذ الأوامر الصادرة له فيما بعد .

والأمر الثالث:هو تغير الولاء. فلقد انتهت الطاعة للقبيلة أو قيادة المدينة . لقد أصبحت الطاعة للّه وللرسول، والمخالف لهذه الأوامر عاصٍ يحاسب على تقصيره. لقد غدا ميزان الطاعة والمعصية ليس بالخروج على أوامر رئيس القبيلة ، أو أعراف القبيلة ، بل صار بالخروج على الأوامر الصادرة من رسول اللّه ﷺ فى مكة .

والأمر الرابع : هو اعتماد الوازع الداخلى بالتطبيق لا السلطان الآمر . فعقوبة المعصية من اللّه تعالى لا من سلطان الدولة ، وأجر الوفاء هو الجنة ، وليس الإنعام المادى من السلطان الحاكم .

كانت هذه التربية ضرورية ـ على قصرها ـ بين يدى المرحلة الجديدة الحاسمة، والحركة الإسلامية اليوم مدعوة إلى هذه القدوة . فارتفاع مستوى أفرادها فى التميز الفكرى، وفى السلوك العملى ، وفى مدى الانضباط والالتزام بأوامر القيادة وتحديد الولاء لها ، واعتماد الوازع الداخلى للتطبيق دون رغبة أو رهبة من الأرض ، هو الذى يجعلها مؤهلة لدور الخلافة فى الأرض .

٨ ـ وإشارة جديدة للصبر ، والحديث عن قيم بيعة العقبة الأولى ؛ هى أن الزمن لا وزن له فى هذا المجال ، ولئن استغرقت التربية المكية ثلاثة عشر عاماً ؛ فقد استغرقت التربية المدنية عامين ـ تزيد أو تنقص قليلاً ـ ومع ذلك اعتبر السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار على سوية واحدة . فالمهم هو نوع التربية وثمرتها لا الزمن الذى استغرقته . ولهذا لم يجد رسول اللّه ﷺ حرجاً حين سمع تقرير مبعوثه خلال عام من وجوده فى المدينة ، أن يستجيب للتعبئة المسلحة فى بيعة العقبة الثانية بعد التعبئة الإيمانية المطلوبة .

السمة السابعة

الإذن بالقتال

(وكان رسول اللّه ﷺ لم يؤذن له بالحرب ، ولم تحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى اللّه ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم. فهم بين مفتون فى دينه، وبين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفى كل وجه ، فلما عتت

قريش على اللّه عز وجل وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ،وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحّده وصدّق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذن اللّه عز وجل لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له بالحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ [الحج : ٣٩ ـ ٤١] . أى إنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس وإنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة،وأمروا بالمعروف،ونهوا عن المنكر يعنى النبى ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين) (١) .

ولا يحتاج هذا الكلام إلى شرح ، فلقد كانت بيعة العقبة الثانية فيصلاً بين مرحلتين: بين مرحلة المواجهة بالكلمة ، ومرحلة المواجهة بالسلاح ، والمقارنة بين البيعتين توضح لنا الانتقال النوعى للحركة الإسلامية . ويعنى الحركة الإسلامية من هذه السمة أن تلحظ الظروف التى تم الإذن فيها بالقتال لترسم على ضوئها ومن خلال ظروفها مرحلة المواجهة المسلحة مع العدو . إن قرار بدء الحرب الذى كان فى مكة بأمر ربانى هو اليوم تنفيذ لهذا الأمر حين تغدو الظروف شبيهة بتلك الظروف التى أذن فيها بالقتال، ومهمة قيادة الحركة أن تحسن تقدير هذه الظروف . والملاحظة التى لابد من إيضاحها في هذا الصدد كذلك هى أن الإذن بالقتال شىء، ومباشرة القتال وطريقته شىء آخر .

وهنا لابد لنا من معالجة فكرة دقيقة هى مثار اختلاف فى وجهات النظر ، هذه الفكرة هى كيف نوفق بين فرضية الجهاد والحكم النهائى فيه بعد آيات سورة براءة ،وبين موضوع الإذن فى القتال اليوم ؟ فإذا كانت الأحكام النهائية للقتال فى الإسلام هى أنه ماض إلى يوم القيامة ـ وهذا حق ـ فهل يبقى مجال لذكر الإذن بالقتال اليوم، والإذن بالقتال حكم مرحلى انتهى فى وقته ـ واللّه تعالى قال: ﴿ **الْيَوْمَ**

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ... ﴾ [المائدة : ٣] . وليس من حرج فى التوفيق بين الحكمين ؛ لأن مؤداهما واحد فى النهاية .

فلقد ذكر الفقهاء أن الجهاد قد يكون فرض عين ، ولا يأثم تاركه ، وذلك حين لا يوجد الإمام الذى يباشر القتال معه . فإذن حين لا يوجد الإمام والجماعة المسلمة التى ينضوى المسلم تحت لوائها ليقاتل الكفار لا يأثم إن لم يقاتل مع أن القتال فرض عين عليه.

وهذا المعنى نفسه هو الذى يقتضيه المفهوم الثانى ، فإلى أن تقوم الجماعة المسلمة ـ والإمام المسلم الذى يقودها ، وتكون قادرة على الوجود والاستعلان والمواجهة يعتبر القتال فى هذه المرحلة بشكل فردى غير مأذون به ما لم يكن دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض . وإذن فالذى يحدد ابتداء القتال فى الحالتين هو الجماعة المسلمة ، وقيادتها التى تجد الظروف مناسبة لذلك .

إن كل أحكام الإسلام الثابتة المستقرة النهائية ، والمرتبط تنفيذها بوجود الحاكم والإمام المسلم مثل الحدود والقصاص لا يعنى عدم وجودها فى غياب الإمام المسلم نسخها ، فهى قائمة نظرياً ، والمسلمون آثمون لو تركوها . لكنها من الناحية العملية مرهونة بقيام الحكم الإسلامى الذى ينبثق من جماعة مسلمة ، حملت لواء الجهاد وانتصرت على أعدائها ، وأقامت حكم الإسلام .

فأحكام الجهاد والقصاص والحدود مرتبطة بوجود الحاكم المسلم وإمكاناته قوة وضعفاً وكما تقول الآية : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾ [الحج : ٤١] . فلابد من التمكين أولاً لتنفيذ فرضية الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الناس ، لا التنفيذ بشكل فردى ، فهذا لا عجز فيه ، إنما العجز هو تطبيق هذه الأحكام فرضاً على الناس ، وكلما تمكن المسلمون أكثر كلما كانوا قادرين على التنفيذ لأحكام الإسلام أكثر ؛ وما أحوجنا إلى أن نفقه هذه الأمور ضمن هذه **الأطر** ، لا أن نطلق الأحكام المبتسرة على الناس ونتهمهم فى دينهم وعقيدتهم .

السمة الثامنة

التهيئة لمباحثات قيام الدولة

قال كعب بن مالك : (خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا . . . وواعدنا رسول اللّه ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول اللّه ﷺ لها ومعنا عبد اللّه بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد الرسول ﷺ إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً .

فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول اللّه ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدى.

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول اللّه ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمى هذا الحى من الأنصار: الخزرج : خزرجها وأوسها ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلدة ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده. فقلنا له: قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت) [1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٩ ـ ٤٤٢ .

ونلاحظ من خلال هذا العرض الملاحظات التالية :

١ ـ لقد تمت التهيئة لمباحثات قيام الدولة فى أعمق تخطيط سياسى شهده التاريخ حيث انبثقت دولة الإسلام ، وتم تحديد معالمها وقيادتها وهى جزيرة ضعيفة وسط خضم من الشرك مثَّله العرب جميعاً من حجاج منى أولاً ، ثم دولة مكة المشركة ثانياً ، ثم قيادة المشركين من أهل يثرب ثالثاً ، ثم دولة اليهود فى المدينة رابعاً .

ووسط هذا العدو العاتى والمحيط بالمسلمين من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وسط هذا الخضم انبثقت دولة الإسلام الأولى فى التاريخ .

٢ ـ لقد كان المسلمون البالغ عددهم بضعةً وسبعين ضمن وفد من المشركين قوامه حوالى ثلاثمائة ،وهذا يعنى صعوبة الحركة والتنقل والاتصال، فما من مسلم إلا وحواليه عدد من المشركين يراقب تنقلاته وتحركاته ، ومع ذلك فلقد كانت السرية المضروبة على التحركات خلال الحج من أعجب العوامل التى أدت لنجاح المخططات .

تمت الاتصالات بين قيادة مكة المسلمة المتمثلة برسول اللّه ﷺ ، وقيادة المسلمين فى المدينة ، وتم تحديد موعد اللقاء ، وتم تحديد مكان اللقاء ، وتم اللقاء نفسه دون انتباه أحد ، وتم دخول بعض الأعداد الجديدة فى الإسلام خلال هذه الأيام المعدودة ، ولعل من أهم الأحداث هذه الأيام انضمام زعيمين من أكبر زعماء المدينة للإسلام هما البراء بن معرور، وعبد اللّه بن عمرو بن حرام.

وتشير بعض الروايات إلى أن رئاسة الوفد كله مسلمه ومشركه قد انتهت إلى البراء بن معرور [١] وطالما أنه قد أسلم فهو الذى يقوم بتحديد اللقاءات المقررة ، واختار كعباً ليرافقه بصفته الشاعر المشهور والمعروف عند قريش .

٣ ـ وكانت الخطوة الثانية من التخطيط العبقرى هو الخروج المنظم لموعد الاجتماع ، وكما يقول كعب : (حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول اللّه ﷺ نتسلل تسلل القطا [٢] مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند

---

(١) لكن الأرجح أن رئيس الوفد هو عبد الله بن أبى ؛ لأن مشركى قريش كلموه عن الحلف مع المسلمين ونفى وقوع ذلك .

(٢) القطا : طائر مشهور بخفة حركته .

العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو) .

وتم الاجتماع لهذا العدد الضخم الذى انسل من معسكرات المشركين دون أن ينتبه لهم أحد .

٤ ـ وكانت الخطوة الثالثة من التنظيم المحكم كما تشير بعض الروايات إلى تأمين حراسة الشعب بحيث لا يدرى أحد بالأمر .

يقول المقريزى :(وجاءهم رسول الله ﷺ معه عمه العباس وهو على دين قومه،وأبو بكر وعلى رضي الله عنهما ، فأوقف العباس عليا على فم الشعب عيناً له وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً له)[1].فلم يدر حتى المهاجرون بهذا اللقاء السرى إلا من كان له مهمة خاصة فى الحراسة والمراقبة وهما: على وأبو بكر رضي الله عنهما .

٥ ـ وكان حضور العباس وحديثه وهو على دين قومه ـ كما يظهر ـ ضرورة سياسية ، فهو الذى يحمل عبء حماية النبى ﷺ ، فلابد أن يتوثق من مستوى هذه الحماية الجديدة ليطمئن عليها ، وإلا فلن يفرط بابن أخيه .

ولعل هذا يشير إلى إمكانيات اشتراك بعض الشخصيات غير الإسلامية إذا كانت مناط ثقة تامة من القيادة فى عملية تغيير سياسى لصالح الإسلام أو يمكن القول :

إنها فى ظاهرها موالية للسلطة الحاكمة،أما حقيقة ولائها فهو للقيادة المسلمة، خاصة إذا كان لها دور رئيسى فى التحرك ، كقيادة مجموعة سياسية فى عملية تغيير سياسى ، بل بإمكانها أن تشارك فى وضع الخطة وتنفيذها عندما تكون ذات خبرات عريقة . فلقد شارك العباس رضي الله عنه فى تنفيذ هذا اللقاء كما تشير الرواية ، وهو الذى أمر أبا بكر وعلياً بوقوفهما على الطرق المؤدية للشعب .

إن من حق القيادة بل من واجبها أن تستفيد من الخبرات والطاقات الإسلامية وغير الإسلامية عندما تدين لها بالولاء والطاعة ، بل تشركها بالتخطيط والتنفيذ عندما تجد ضرورة لذلك .

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٣٥ .

السمة التاسعة

البيان السياسى

(البيعة)

روى الإمام أحمد عن جابر مفصلاً :

(قال جابر : قلنا : يا رسول اللّه ، علامَ نبايعك ؟ قال :

١ ـ على السمع والطاعة فى النشاط والكسل .

٢ ـ وعلى النفقة فى العسر واليسر .

٣ ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٤ ـ وعلى أن تقوموا فى اللّه لا تأخذكم فى اللّه لومة لائم .

٥ ـ وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة) (١) .

وفى رواية كعب ـ التى رواها ابن إسحاق ـ البند الأخير فقط من هذه البنود ففيه : (قال كعب : فقلنا له ـ أى للعباس : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول اللّه ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا إلى اللّه ، ورغب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء ابن معرور بيده ثم قال : والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ـ نساءنا ـ فبايعنا يا رسول اللّه فنحن واللّه أبناء الحرب ، وأبناء الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر ، فاعترض القول والبراء يكلم رسول اللّه ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول اللّه ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنّا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول اللّه ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم») (٢) .

١ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٢٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٤٢ .

والتراخي فالبيعة على الإسلام شيء، والبيعة على إقامة دولة الإسلام شيء آخر ، وإن الرجال الذين يعدون ليكونوا أفراداً مغمورين فى عداد المسلمين شيء ، والذين يُعدون لتقوم دولة الإسلام بسواعدهم وأرواحهم وأموالهم ودمائهم شيء آخر ، ويكفى أنها مضت فى التاريخ أن البيعة الخالية من الحرب والجهاد ومنها بيعة العقبة الأولى كانت تسمى بيعة النساء ، أما هذه البيعة فبيعة الحرب .

ومع ذلك فليست حرب الإبادة ، وليست حرب الإفناء بل الحرب المخططة المحكمة، المحددة الأهداف، التى ترتبط بالنصرة بعد وصول القيادة النبوية للمدينة. إن كل قطرة دم يجب أن تراق ضمن هدف ، لا أن تراق لانفعال عاطفى ، أو غضبة جارفة ، وإذا جد الجد فالإسلام عديل الروح بل هو أغلى منها ؛ لأنه يضحى بالروح والدم والمال من أجله ، وتحمى القيادة الإسلامية كما يحمى المرء زوجه وولده ونفسه .

٢ ـ وسرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردد ـ البراء بن معرور قائلاً : (والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر) .

والبراء هو المفوض الرسمى ، وهو رئيس الوفد المفاوض ، وهو الذى أسلم بنشاط الدعاة على الطريق ، وها هو يعرض إمكانيات قومه لرسول الله ﷺ : قومه أبناء الحروب والسلاح . إن هذا يعنى بالنسبة للحركة الإسلامية أن تعرف أولاً الطاقات القتالية عندها من جهة ، وأن تعرف من جهة ثانية كيف توجه هذه الطاقات فى أحسن سبيل فيكون صاحب الكفاءة مكانه، وأخو الحرب فى مجاله ، بل عليها أن تستدعى الطاقات الإسلامية والنصيرة من كل صقع لتؤدى الدور المطلوب . وكلما كان أصحاب هذه الطاقات قد خاضوا تجارب عملية ، وحروباً فعلية ، كلما كانت قدرتهم على التخطيط العسكرى والمواجهة الحربية أكثر.

٣ ـ والأوامر شيء والمفاوضات شيء آخر فقد اعترض أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه وهو المسلم العظيم على أمر مهم قبل البيعة،وكان لابد من طرحه بصراحة ووضوح:(يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا) فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: « بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . ويالها من مفاوضات نادرة

فى التاريخ بين جندى وقائد بل بين مسلم ورسول . إن طبيعة المعركة تقتضى أوضاعاً جديدة ، وإن حمل السلاح يعنى الحرب الضروس التى تأكل كل شىء .

فالحركة الإسلامية فى بعض فصائلها ، قبل أن تتبنى الجهاد ، وقبل أن تحمل السلاح كانت آمنة ، وكان شبابها فى وظائف الدولة يملؤون فجاجها ، بل مرت مرحلة وصل بعض شبابها إلى مجلس الشعب ـ كما يسمونه ـ ولكن فى خدمة النظام الجاهلى الكافر ، كما أنه لم يكن أحد يعلن أنه جزء من الحركة الإسلامية والذى يؤخذ من السلطة على أنه منها إنما يؤخذ على سبيل الحدس والظن .

كان هذا الواقع قبل البيعة على الجهاد ، أما بعدها فانقلبت الصورة كاملة ، لقد أصبح مجرد الظنة باشتراك فرد فى عملية ، أو شروعه وتفكيره بالانضمام إلى التنظيم المسلح يعنى الحكم بإعدامه وإبادته ، بل أكثر من ذلك ، الحكم بإبادة أقاربه وعائلته . وانطلاقاً من هذا الواقع ، فليس من حق القيادة أن تتخلى عن هذا الطريق ، وتترك جنودها يبادون وحدهم فى العراء ، أن تصالح لنفسها ، أو تأخذ أماناً لنفسها وتترك الفاجعة تأكل شبابها وشيبها.

هذا هو مفهوم اعتراض أبى الهيثم بن التيهان ﷺ ؛ لأن قطع العهود مع اليهود تعنى الحرب عليهم ، فإذا تخلى رسول الله ﷺ عنهم ومضى إلى مكة فهذا يعنى ترك المسلمين تحت رحمة اليهود يفعلون بهم الأفاعيل ، ويستأصلون أخضرهم ويابسهم . فإذا كان من حق أبى الهيثم ﷺ أن يناقش رسول رب العالمين بهذا الأمر ، فأى قيادة فى الدنيا مهما ارتفعت تكون فوق النقاش ؟ وأى قائد فى هذا الوجود هو أكبر من المحاسبة ؟!

وليعلم كل جندى فى الحركة الإسلامية أن من حقه أن يعترض مثل هذا الاعتراض على قيادته إن انسحبت من المعركة وتركته يتلوى وحده فى النار. إن كل قطرة دم تراق بأمر القيادة هى فى عنقها ستسأل عنها يوم الدين فيم أراقتها ؟ ولِمَ لمْ تحافظ عليها من الضياع ؟

وماذا كان جواب سيد الخلق لجنديه ابن التيهان ؟

قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالتم » وياله من نداء خالد ترددد أصداء الوجود .

القيادة جزء من القاعدة ، والقاعدة جزء من القيادة ، شركاء متلاحمون

منصهرون فى المغرم والمغنم، دمهم واحد ، ومصيرهم واحد ، ونكبتهم واحدة ، وحملهم واحد . لقد أبدى رسول اللّه ﷺ استعداده وهو الطرف القائد المفاوض أن يشن الحرب على من حارب جنده ، ويسالم من سالمهم ، جعلهم الأصل فى الحرب والسلم .

٤ ـ وملاحظة أخيرة للجنود فى الدعوة نفقهها من هذه النصوص هى : إن الأنصار رضي الله عنهم اكتفوا بملاحظة أبى الهيثم واعتراضه،وكان معبراً عن رأيهم جميعاً ، وكان الرد عليه من رسول اللّه ﷺ على أنه ممثلاً لهم جميعاً .

لقد كان الاعتراض منهجياً شرعياً لا غوغائياً فوضوياً ، وهذا يعنى الحركة المنظمة كثيراً؛ بأن تكون طريقة النقد والاعتراض والمحاسبة ضمن المعابر الشرعية والتنظيمية، لا من خلال الفوضوية والفردية بحيث يتكلم كل أخٍ على هواه. ويمثل المعابر التنظيمية فى الحركة الإسلامية اليوم مجلس شوراها المنبثق عنها ، فهو الذى يحقق صورة النقد البناء ، وهو الذى يحاسب القيادة ويناقشها ويطرح ملاحظات القواعد عليها وعلى القيادة أن تستجيب لأية تساؤلات، وترد على أى اقتراح ، وبذلك يضمن التنظيم قوته وتلاحمه واستمراره .

السمة العاشرة
توثيق البيان وإقراره

يقول العلامة المباركفورى فى كتابه ـ الرحيق المختوم :(وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع فى عقدها ، قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١، ١٢ من النبوة،وقام أحدهما تلو الآخر ليؤكدا خطورة المسؤولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو واللّه إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف

فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة،قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول اللّه إن نحن وفينا بذلك ؟ قال: « الجنة » . قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه . وفى رواية جابر قال : فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين فقال : رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول اللّه ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على اللّه، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فهو أعذر لكم عند اللّه ، فقالوا : يا أسعد ، أمط عنا يدك ، فو اللّه لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها . . .) (١) .

كان لابد أن يظهر الوجه المقابل للصورة التى عرضها ابن التيهان ، وظهر ذلك على الشكل التالى :

١ ـ حرب الأحمر والأسود من الناس .

مفارقة العرب كافة .

قتل الأشراف والخيار ، ونهكة الأموال والأعراض .

وهذه هى طبيعة معركتنا اليوم كما كانت طبيعة المعركة يوم العقبة .

إننا حين نعرف طبيعة المعركة ، نعرف طبيعة الحركة من خلالها . إنه لابد أن يعرف كل فرد فى القاعدة الصلبة طبيعة هذه المعركة والتى قد تكون فى حرب الأحمر والأسود من الناس، وفى مفارقة الناس كافة،وفى نهكة الأموال والأعراض، إنه بعد أن يعرف هذا الأمر، فليبايع أو يرفض ، إنه يمكن أن يبقى على بيعة النساء ، كما وردت فى سورة الممتحنة ، أما بيعة الرجال ، وأما بيعة الحرب فهذه حدودها ، وهذه ظروفها ، وهذه طبيعتها .

وما أحرى الحركة الإسلامية أن تكون واضحة صريحة صادقة مع قواعدها لا تغشهم، ولا توحى لهم أن النصر قاب قوسين أو أدنى ، تخدرهم بالأحلام الجميلة ، وأن العرب معنا ، وأن الذى ينقصنا هو التفاوض معهم ، وأن قوى العالم ترضانا إذا فاوضنا،وأن الأمر كله أمر حركة سياسية ، أو أمر جبهة وطنية ، أو أمر حلف سياسى ، أو أمر لعبة ذكية . لسنا أحب إلى اللّه تعالى من رسوله ،

(١) الرحيق المختوم ص ١٦٧،١٦٨ وهو عند أحمد ٣/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

ولسنا أكرم على الله من صحابته . هذا هو خط السير ، فمن رضيه على هذا الأساس فمرحباً وأهلاً ، فليتقدم وليبايع ، ومن لم يرض فهو وشأنه ، ولكن لا غش ولا لبس ولا غموض . والذين يريدون أن يحرفوا المعركة ، ولا يتحملوا تبعاتها، فمكانهم خارج الصف، ومن أول الطريق، فالطريق صعب، والطريق شائك،والطريق طويل،ولقد كانت قيادات الأنصار على مستوى المعركة،ولم تغش قواعدها، ولم تدغدغ أحلامهم بل أوقفت البيعة حتى أوضحت خطورة الأمر وأوضحت تبعاته وبينت مهالكه ومصاعبه، فماذا كان بعد ذلك ؟

٢ـ قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا إن نحن وفينا بذلك؟ قال : « الجنة » .

هل يقبل أى حليف سياسى كافر بهذا الثمن؟ هل يصدق أصلاً أن هناك جنة؟

فالمعركة إذن معركتنا نحن ، معركة الجنود المؤمنين ، معركة القاعدة الإسلامية الصلبة العريضة فى الأرض ، وفى هذه المرحلة بالذات ، ليس الاتجاه الدقيق هو اتجاه التحالف السياسى ، بل هو اتجاه البناء الداخلى . إن ظروفنا الآن هى ظروف بيعة العقبة ، هى ظروف بيعة الحرب ، فقد تجاوزنا مرحلة الدخول فى الجوار ، وحتى مرحلة الحماية لدعوة الله ، نحن الآن فى مرحلة المواجهة السافرة مع العدو ، ومع قوى الأرض ، وذخيرتنا هى قاعدتنا الصلبة ، هى قواعدنا المؤمنة التى ترضى بالجنة ثمناً لحرب الأحمر والأسود من الناس، ترضى بالجنة ثمناً لمفارقة الناس كافة ، ترضى بالجنة ثمناً لنهكة الأموال والأعراض، تستعد للوفاء بهذه الالتزامات وترضى بالجنة ثمناً وحيداً لها .

ليس عند القيادة ثمنان ، ليس عند الله تعالى الذى نبايعه ثمن فى هذه الظروف إلا الجنة كما نطق رسوله بذلك . أما النصر فقد لا نكون نحن أصحابه ، قد نكون نحن جيل الشهادة. إن النصر قادم لا محالة ، لكن لنا ؟! لا ندرى . إن الوعد الذى قطعه الله تعالى على نفسه لمن وفى بهذه الالتزامات هو الجنة ، وهو الوعد الذى رضيه الله تعالى لرسوله أن يعطيه باسمه . وأما النصر فهبة ربانية تأتى فى الموعد الذى يختاره جل شأنه لدعوته .

أما الحديث عن نصر موهوم يقوم على أكتاف عدو الله يقدمه لنا ، أو نصر حالم يقوم على أكتاف مساندة الكفار الحلفاء لنا،فنحن واهمون،ولسنا مدركين طبيعة المعركة التى نخوضها، وإن تحققه دون أن نلتزم بقواعد هذه الشريعة فالمعركة

ـ والعياذ بالله ـ كلها خاسرة.

إنه قبل أن تقوم دولة الإسلام على الأرض ، فلا وعد عند الله تعالى إلا الجنة للجيل الذى يحمل اللواء لحرب الأحمر والأسود من الناس .

٣ ـ (فقالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

وقالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . وقالوا : يا أسعد أمط لنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها) .

(قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة). وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة ، فكانت قولاً ، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

وقبل المفاوضون بالبيعة ، وبايعوه جميعاً دون أن يتخلف أحد ، حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب . وصدقتا عهدهما ، فلقد سقطت أم عمارة فى أحد جريحة فى جسدها اثنا عشر جرحاً ، وقد قطّع مسيلمة الكذاب ابنها إرباً إرباً ، فما وهنت وما استكانت وتحولت النسوة فى هذه البيعة إلى رجال يقاتلن ويبايعن على قتل أشرافهن ، وحرب الأحمر والأسود من الناس .

السمة الحادية عشرة
تشكيل الحكومة الإسلامية بالانتخاب

يقول المباركفورى:(وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثنى عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسؤولية عليهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة . فقال للقوم: « أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومكم بما فيهم ». فتم انتخابهم فى الحال، وكانوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . . . ولما تمّ انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبى ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين. قال لهم: « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى ـ يعنى المسلمين » قالوا: نعم)[1].

لم تنته القضية بعد فلن يستطيع رسول الله ﷺ أن يتصل بكل فرد من هؤلاء

(١) الرحيق المختوم ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

المبايعين كل مرة ، ولن يستطيع أن يبايع كل أفراد الأمة المسلمة على ذلك ، فلابد من انتخاب قيادة مسؤولة مسؤولية مباشرة عن هذه القواعد،وتم الأمر بانتخاب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

١ ـ إن مفهوم الاختيار والانتخاب فى نظام الحكم الإسلامى مفهوم أساسى ، والغريب فى الأمر أن يوجد من يناقش فى هذا المبدأ فى صفوف الحركة الإسلامية، ومن يناقشون فى هذا الأمر يقوم تصورهم على أن الأمير فى الإسلام هو الحاكم المطلق الذى لا يناقش إلا إذا عصى اللّه تعالى ، ولا يقيمون وزناً لرأى القواعد الإسلامية فى اختيار قيادتها الحاكمة . وهو تصور مخطئ ولا شك . وإن كان فى هذه الأرض من يحق له أن يستعمل رأيه دون الرجوع إلى القواعد المسلمة فهو : رسول اللّه ﷺ ؛ لأنه المؤيد بالوحى من اللّه تعالى ، والناطق به . وكان بإمكانه عليه الصلاة والسلام ـ وهو يقوم على اختيار المسؤولين لديه ـ أن يختار الذين بايعوه فى بيعة العقبة الأولى وكانوا اثنى عشر رجلاً ، وقد خَبَرهُم وخَبَرَ صدقَهم وحُسنَ ولائهم ، ومع ذلك لم يفعل هذا عليه الصلاة والسلام ، وكان تصرفه هذا درساً بليغاً للمسلمين فى الأرض عن كيفية اختيار الحاكم ، واعتبار رغبة الأمة أو أهل الرأى فيها هى الأساس الذى يقوم عليه الاختيار ولم يتدخل عليه الصلاة والسلام من قريب أو بعيد بهذا الاختيار ، وما أحرانا أن نتعلم من هذا العمل النبوى قواعد الحكم الشورى ، والتنفيذ العملى له .

٢ ـ والمسؤولية على قدر الصلاحية ، فلقد حدد رسول اللّه ﷺ المسؤولية لهؤلاء النقباء الاثنى عشر، بعد أن اعتبرهم القادة المسؤولين . وواجبهم أن يكونوا كفلاء على قومهم من المسلمين الذين بايعوا فى العقبة ، والذين أقاموا فى يثرب ، هم مسؤولون عن تصرفاتهم وانضباطهم وطاعتهم ، والتزامهم بأوامر هذا الدين الجديد،وبعدم الإخلال فى أحكامه،وهم محاسبون أمام رسول اللّه ﷺ، وأخطاء القاعدة تحاسب عنها القيادة ، طالما أن لها صلاحيات الحكم والتوجيه فيها .

٣ ـ وتبدو العظمة النبوية بأجلى صورها حين لم يعف رسول اللّه ﷺ نفسه من المسؤولية ، بل أعلن التكافؤ فيها فقال : « وأنا كفيل على قومى » .

فهم ـ وهم الجنود المؤمنون ـ من حقهم أن يناقشوا رسول اللّه ﷺ عن أخطاء وتصرفات المسلمين فى مكة ، ولا يوجد إذن فى الدنيا من هو فوق المساءلة والمحاسبة إذا كان رسول اللّه ﷺ تكفل بقومه من المسلمين .

٤ ـ وتظهر خطورة المسؤولية لهذه الحكومة المنتخبة حين نذكر أن حرب بعاث بين الأوس والخزرج لم تجف دماؤها بعد . فإمكانية اشتعال الحرب بينهم قائمة فى كل لحظة ، فلابد أن تتمكن هذه الحكومة الائتلافية من الأوس والخزرج أن تضمن استقرار الأوضاع فى المدينة ، ومعالجة الأوضاع الصعبة فيها ، والحيلولة دون اندلاع الحرب من جديد .

ويبدو الأمر أشق وأعسر حين نتصور أنه لابد من تكوين التحام كامل بين المسلمين أوسهم وخزرجهم ، فليس المهم أن تخف البغضاء بينهم فقط ، بل لابد أن يسود الحب والوئام بينهم ، ولابد أن يكون التفاهم بين أعضاء الحكومة على مستوى رفيع جداً .

ولقد أثبتت الأيام الكفاءة العالية لهذه الحكومة ، وكيف أنها استطاعت أن تتغلب على هذه الصعاب جميعاً وتكون مجتمعاً مثالياً بتوفيق الله لها ، وكانوا بثناء الله عليهم يمثلون الصورة المثلى للمؤمنين ، كما ذكرهم جل وعلا : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾

[الحشر : ٩]

٥ ـ إن عملية رص الصف الداخلى ، وتوحيد النفوس نحو هدف واحد ، وربط القواعد بقيادتها فى ثقة قوية هى من أصعب الأمور على المرء .

فالنفوس المختلفة ، والأهواء المتباعدة ، والصراعات والتناحرات قد تسيطر أحياناً ، فتبتلى القيادة فيها ، وتنتقل هذه الخلافات إلى صفوف القواعد ، فيتحزبون لفلان أو فلان ، وبذلك تكبر الهوة ، ويتسع الخرق على الراقع .

والأمير الأول للجماعة له دور رئيس فى ضبط الصف والتأليف بين القلوب المتناحرة فى اتجاهات شتى ، وهو مسؤول كذلك عن تآلف هذا الصف وترابطه ، وتوفيق الله تعالى وتسديده هو الذى يساعد فى هذه الوحدة ، أما البشر فهم أعجز من ذلك ، ويكفينا فى هذا المجال قول الله تعالى لرسوله : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾

[الأنفال : ٦٣]

السمة الثانية عشرة
القيادة تحدد المعركة

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه : (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل (الجباجب) [1] ، هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ:« هذا أزبّ العقبة[2]؛أما والله يا عدو الله لأفرغن لك » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ارفضوا [3] إلى رحالكم » قال : فقال له العباس بن نضلة : والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا . فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » ، فرجعنا إلى مضاجعنا ونمنا حتى أصبحنا) [4] .

أين كان طواغيت الأرض من هذه البيعة الفريدة فى تاريخ الأرض ؟ أين كان مشركو المدينة والبيعة تتم على رؤوسهم ؟ وأين كانت قريش والبيعة تريد أن تحطم طاغوتها وكبرياءها ؟ وهى تحاد الله وتكذب رسوله ؟ وأين كان الحجيج المشرك كله،والبيعة ستنتهى ألا يحج بعد العام مشرك ،ولا يطوف بالبيت عريان ؟ نقول : هذا عن العدو القريب الذى كان وضع هؤلاء السبعين بالنسبة لهم كوضع اللقمة بين فكى الأسد ، ولا نذكر ملوك الأرض الأبعدين كسرى وقيصر وحلفاءهما وعبيدهما،أين كان كل هؤلاء ؟ كانوا يشخرون فى نومهم، ويغطون فى سباتهم ، وعين الله تعالى تكلأ هذه العصبة المؤمنة. والساهر الوحيد الذى كان يقضم أسنانه غيظاً ،ويعض أصابعه ندماً هو الشيطان الرجيم ،وانتظر حلفاءه فى الأرض كلها ، فلم يتحرك أحد على أخطر بيعة فى الأرض ، فما تمالك أن صرخ : يا أهل الأخاشب، هل لكم فى مذمم والصباة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم . فالشيطان إذن ساهر ليمزق كل بيعة على الجهاد فى سبيل الله ، ولن ينثنى بنفسه أو حلفائه عن هذه الحرب ، فهذه مهمته ، وقد قتلته عبقرية النبوة السياسية التى حققت كل هذه الانتصارات ، والشرك غاف كالمقبور لايدرى ما يجرى حوله .

---

(١) الجباجب : المنازل .
(٢) أزب العقبة : شيطان العقبة .
(٣) ارفضوا : انصرفوا .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

فهل لنا بمثل هذه العبقرية فى تحركنا الجديد اليوم ؟

ووضع المبايعون أيديهم على مقابض السيوف ليستلوها من أغمادها أمام هذا النداء قائلين : (لئن شئت يا رسول الله لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا) الاستعداد للتو لتنفيذ بنود البيعة ، بل أكثر من البنود ؛ لأن يحموه عليه الصلاة والسلام وهو فى مكة .

ويأتى الجواب النبوى العظيم : « لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا إلى رحالكم » فكم الفرق بين معركة آنية يسقط بها هؤلاء السبعون شهداء استجابة لنزوة طارئة ، وانفعال هائج، وبين المسؤولية عن كل قطرة دم تسقط دون تخطيط ، وتسفح دون هدف .

إن دم المسلم أشد عند الله تعالى حرمة من الكعبة المشرفة فكيف يسقط هذا الدم دون مقابل ؟!

لابد من الإعداد للمعركة ، ولمَّا تحن المعركة بعد ، فالنبى ﷺ هو الذى يحدد زمانها ومكانها ، وواجب الجنود أن تكون أيديهم فى كل لحظة على الزناد أو على العتاد ، أما واجب القيادة فأضخم من ذلك بكثير ؛ أن تدرس آلاف الاحتمالات الناجحة أو الفاشلة لخوض المعركة ؛ لأن كل قطرة دم سوف تقف يوم القيامة على رأس هذه القيادة وتسألها ؛ فيم أرقت ؟ فماذا تجيب ؟ فلئن كان واجب الجندية أن تكون يدها على الزناد فى كل لحظة يطلب منها ذلك ، فأشد وجوباً عليها وألزم أن ترفع يدها عنه ، وتمضى إلى رحلها دون اعتراض « ولكن ارفضوا إلى رحالكم » .

ما أجلاه من درس ؟!وما أروعها من عبرة ؟!

الاستعداد لقتال الحجيج كافة (لنميلن على أهل منى بأسيافنا) والإشارة الواحدة بالانصراف « ارفضوا إلى رحالكم » . ويعود السبعون والنيف يتسللون كالقطا إلى أماكنهم التى انسحبوا منها فى الهزيع الأول من الليل، ومن حولهم غارقون فى نومهم ، فيشاركونهم فى الشخير ، دون أن يدرى بهم أحد حتى من تسللوا من فرشهم وكانوا نياماً معهم .

السمة الثالثة عشرة

القيادة تحدد ميلاد الدولة الإسلامية

ولنعد إلى المباركفورى فى عرضه القيم للبيعة : (ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم ، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة فقد قال : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه واللّه ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم) ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة لأنها تمت فى سرية تامة وفى ظلام الليل ، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون باللّه : ما كان من شىء ، وما علمناه حتى أتوا عبد اللّه بن أبى بن سلول ، فجعل يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومى ليفتئتوا على مثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى ، أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت . فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين فرجعوا خائبين .

وعاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يتنطسون،(يكثرون البحث، ويدققون النظر فيه) حتى تأكد لهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلاً. وذلك عندما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين ، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، فطاردوهما. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله،وجعلوا يضربونه، ويجرونه، ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدى[1] ، والحارث بن حرب ابن أمية فخلصاه من أيديهم ؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل

(١) الصحيح هو جبير بن مطعم وليس المطعم نفسه .

القوم جميعاً إلى المدينة) [1] .

١ ـ تحركت قريش كالذى أصابه الشيطان من المس ، وجاءت مخيم الخزرج ، وراح المشركون يحلفون بالله ما فعلوها ، وهم صادقون ، وراح عبد الله بن أبى ينفى الأمر نفياً قاطعاً ويؤكد استحالته : فما كان لقومه أن يفتئتوا عليه بمثل ذلك .

وصدق وهو كذوب ، فما علم بأن الانقلاب السرى الذى تم التخطيط له لا يمكن البوح بأسراره ، ولوقطعت الرقاب على ذلك .

ويحضرنا سؤال دقيق فى هذا المجال : لماذا لم يعلن رسول الله ﷺ فى مكة حلفه ودولته،وقريش تبحث عن الخبر، والمسلمون يلوذون بالصمت ، والمشركون يحلفون الأيمان المغلظة على كذب هذا الادعاء ؟ والجواب سهل وواضح غير أن أثره وفقه الدرس فيه يغيب بكل أسف عن أذهان الشباب فى الحركة الإسلامية .

جواب السؤال : هو أن الظروف غير مواتية لهذا الإعلان ، وطاقة المسلمين ضعيفة إذا قيست بطاقات مكة والمشركين عامة فى أرض مكة ، أو إعلان الحرب على دولة الكفر ،أو إعلان قيام دولة الإسلام ، كل هذه الأمور رهينة بالإمكانيات التى تملكها الجماعة المسلمة ضمن التخطيط المنظم المحكم لها ، ولا تتحرك هذه الأمور أبداً بالعواطف وردود الفعل ، إنما تتحرك بقرار القيادة المناسب للإعلان ، والتى تتوخى القيادة فيه الظروف المواتية .

ونود لو يترك شباب الحركة الإسلامية لقيادتها إعلان المواجهة وطبيعتها حسبما تقضيه الظروف العامة للحركة .

ويتحدد هذا الدرس فى نقطتين :

النقطة الأولى : هى أن الذى يحدد ميلاد الدولة الإسلامية هو القيادة لا القاعدة سواءً أكان هذا فى أرضها أو غير أرضها ، وهذه القضية كثيراً ما تأخذ طابع الاتهام للقيادة بالجبن أو الانحراف لو تأخرت فى ذلك .

فبعض الشباب الإسلامى مثلاً لا يستطيع أن يتصور قيام انقلاب إسلامى أو حركة إسلامية فى أرض أو دولة ، إلا وواجب الإعلان عن هوية هذه الثورة ، هو الحق وهو الشجاعة ، مع أن المصلحة السياسية قد تقتضى أحياناً إرجاء الإعلان عن هوية الانقلاب أشهراً بل سنوات أحياناً . ويرى هؤلاء الشباب أن

(١) الرحيق المختوم ص ١٧٠ ـ ١٧٢ .

هذا التأخير هو انحراف عن الإسلام حين لا يتحدث هؤلاء الانقلابيون ـ غير محددى الهوية فى الأصل ـ عن الإسلام ، بل يذكرون بعض المبادئ الوطنية للتغطية حتى يتم التمكن والتمكين وهذا تصور خاطئ ، وحكم جائر .

إن إعلان قيام دولة الإسلام رهين بالظروف المواتية لذلك حسب تقدير القيادة لا حسب تقدير الأفراد ، فرسول اللّه ﷺ أرجأ الإعلان عن هذا التخطيط ؛ لأنه وجد الفرصة غير مواتية فى قلب بحر الشرك ، وفى مكان غير مركز قوة الأنصار ـ المدينة ـ رغم الإحراجات الشديدة التى تعرض لها المسلمون أمام إلحاح قريش بالتأكد من الخبر ، فلو أعلن ذلك لكانت قريش قادرة ، ومن ورائها الحجيج المشرك أن تذبح هؤلاء السبعين جميعاً ، وتنتهى قصة الإسلام فى الأرض ، وحين ترى الحركة الإسلامية أن إعلان هويتها فى استلام حكم فى مكان ما، قد يفضى بأن تُجتاح من العدو من كل جانب ، وتستأصل البقية الباقية منها، فلا حرج عليها أن تكتم ذلك .

وتجربة مدينة حماة كذلك درس قيّم لحركة الجهاد الإسلامى ، فإعلانها المواجهة المباشرة للسلطة ، ولم تعدّ الظروف المواتية لذلك ؛ أدى إلى دمار المدينة وسقوط عشرات الألوف صرعى فيها ، وإن كانت السلطة قد تعللت بهذه المواجهة لتنفيذ مخططاتها فى تدمير المدينة .

النقطة الثانية : هى أن كتمان القيادة بعض الأمور عن أفرادها لا يعنى اتهامها بالكذب أو الخداع أو التضليل ، حتى لو أتت الظروف المواتية فى ظاهر الأمر لذلك . فلم نعلم من خلال السيرة أن المسلمين المهاجرين قد عرفوا بقضية البيعة غير أبى بكر وعلى رضي الله عنهما ، فلا ضرورة للإعلان عن مثل هذا اللقاء ، ومثل هذه البيعة لهم ، ما لم يتم تكليف جديد لهم على ضوء هذه البيعة ، ولم يجعل هذا الأمر المهاجرين فى قلق وتوتر لكتمان ذلك عنهم حينما عرفوه فيما بعد ، فالروايات تذكر أن رسول اللّه ﷺ بعد لأى من الزمن ، وحين استقرّت الأوضاع فى المدينة أخبر المهاجرين بقوله : « إن اللّه قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها » فخرجوا أرسالاً [1] .

إذن فقد تم إعلامهم بالأمر عندما تقرر فتح باب الهجرة إلى يثرب .

---

(١) أرسالا : جماعة إثر جماعة .

٢ ـ ويؤكد هذه المعانى النتائج الصعبة التى ترتبت على تفشى الخبر ، مما أوقع سعداً ﷺ فى الأسر ، وكان يمكن أن يقتل نتيجة هذا الأمر أو تنقل أسرار التنظيم والمبايعة كاملة لقريش لولا لطف اللّه ، ولم يتم الإفراج عن سعد إلا بتدخل من أعلى مستويات قريش ، ويمكن أن نتصور الأخطار أكثر أنه كان من الممكن للأنصار أن يعودوا لاستخلاص سعد لولا أن ساقه اللّه إليهم .

ونلاحظ كذلك أن رسول اللّه ﷺ ـ والمسلمين معه ـ لم يتدخلوا لحماية سعد ﷺ ؛ لأن هذا يكشف البيعة ويؤكدها بين المسلمين والأنصار ، وهو درس كذلك للشباب حين يرون قيادة الحركة تتلكأ فى نصر المسلمين نتيجة ظروف قاهرة قد تفوت مصلحة كبيرة لهم.

فقد اقتضت مصلحة الدعوة لبعض فصائل الحركة الإسلامية أن تهادن دولة مجاورة حين التقت مصلحتهما على عدو ثالث ، وكان من طبيعة هذه الهدنة أن أمدتها هذه الدولة بالسلاح والتدريب والتحرك على أرضها، وكان من أسس هذه المفاوضات بينهما ألا تتدخل الحركة بالشؤون الداخلية لهذه الدولة ، ومصلحتها فى معاملتها للحركة الإسلامية فيها . كما لا تتدخل الدولة فى شؤون الحركة الإسلامية الداخلية ، ونفذ البند بأمانة تامة .

وقد تضطر الحركة الإسلامية فى موقع آخر ألا تتدخل لحماية أحد أبنائها مباشرة ، إما لعجز فى الإمكانية ، أولمصلحة فى التخطيط ، بحيث لا يكشف من خلال هذا التدخل علاقتها به. فهذا لا يضيرها ولا يدينها ، بل تبقى دائماً مصلحة الجماعة الإسلامية فوق مصلحة الفرد .

٣ ـ ونلاحظ أن الذى أنقذ سعداً قيم الجاهلية ، فكما يروى سعد : (فو اللّه إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىَّ رجلٌ ممن كان معهم فقال : ويحك، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت: بلى واللّه. لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم بن عدى تجاره، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث بن حرب ابن أمية . قال :ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. قال : ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف باسمكما ، ويذكر أن بينكما وبينه جواراً . قالا: ومن هو ؟ قال: سعد بن عبادة. قالا : صدق واللّه إنه كان ليجير

لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم فانطلق) [1] .

ولا يضير الحركة الإسلامية أن تنقذ شبابها أو ينقذهم غيرها تحت أية قيمة أو قانون أو عرف ، إذا كان هذا الأمر لا يؤدى بها إلى تنازلات على حساب مصلحتها العامة أو على حساب مبادئها .

السمة الرابعة عشرة
ابتداء الحرب الإعلامية بين الدولتين

وإثر حادث إطلاق سعد بعد اعتقاله ، قال ضرار بن الخطاب بن مرداس شاعر قريش:

تداركت سعداً عنوة فأسرته وكان شفائى لو تداركت منذراً

ولو نلته طلَّت دماء جراحه وكان حقيقاً أن يهان ويهدرا[2]

فأجاب حسان بن ثابت ضراراً بقوله:

فلست إلى سعد ولا المرء منذرٍ إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا

فلا تك كالشاة التى كان حتفها بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

لقد أمسكت قريش بفتيل الحركة الإسلامية الذى أوشك على الانفجار، وكان من الممكن أن يقع صدام فعلى بين الفريقين لولا إطلاق سعد ، غير أن التهديد والوعيد قد انطلق مؤذناً ببداية المواجهة،ولم يترك المسلمون الأمر دون رد ، فكان شعر حسان إيذاناً ببداية الرد فى الحرب القائمة ، وعلى رأسها الحرب الإعلامية :

فإنا ومن يهدى القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا [3]

لقد كان الإعلام الإسلامى جاهزاً منذ اللحظات الأولى ، التى كان الإعلام فيها أشد من وقع السيف .

وقد تم كل هذا الأمر ، ورسول الله ﷺ واقف على الحياد دون أى تدخل أو إيحاء بالتدخل رغم أن الحلف معه، فلا يزال فى جوار المطعم بن عدى وبنيه :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ . (٢) المصدر نفسه ٢/ ٩٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩٤ .

جبير بن مطعم وإخوته، وجبير هو الذى أجار سعداً كذلك . ولا يريد أن يثير معركة جانبية قبل الإعداد الكامل لها ، واستطاع عليه الصلاة والسلام أن يؤجل المعركة ، ويؤجل الدماء حتى قامت الدولة الإسلامية .

فهل لدى الحركة الإسلامية أكبر من هذا الهدف فى هذه المرحلة؛ أن تقيم دولة الإسلام بأقل ما تستطيع من إراقة دماء ، ولا تدع حلفاً سياسياً أو عرفاً جاهلياً أو قانوناً أرضياً إلا وتستخدمه من أجل هذا الهدف .

السمة الخامسة عشرة

اختيار الأرض وسرية التجمع فيها والهجرة إليها

يقول ابن إسحاق : (فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن تبعه وآوى إليه من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها » فخرجوا أرسالاً ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة ، والهجرة إلى المدينة) (١) .

لقد قيلت مثل هذه الكلمة من رسول الله ﷺ للمسلمين يوم دعاهم للهجرة إلى الحبشة: « إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد » ، واليوم يقول : « إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها » والفرق بين المركزين والمنطلقين واضح .

فمن حيث الموقع : نجد الحبشة بعيدة ، ولا تصلح لتكون مركزاً لإقامة الدولة بعيداً عن الأرض والبيئة العربية ، ومهما قويت فستبقى محصورة ضمن إطار المهاجرين أنفسهم ، والحركة ستكون مشلولة للمواجهة ، بينما نجد المدينة وإن كانت بعيدة نوعاً ما عن مكة ، لكنها تحتل موقعاً حساساً بالنسبة لمكة ، فهى قادرة على خنق مكة اقتصادياً ؛ لأن طريق قوافل قريش عليها والتجارة عَصَبُ الحياة لقريش ، كما أن البيئة واحدة ، والعرب يمكن أن تتم الدعوة فى صفوفهم وأن يتقبلوها .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٦٨ .

ومن حيث العنصر البشرى : فالاعتماد فى الحبشة على الحاكم العادل ، الذى قد يتغير فى أية لحظة، فيصبح المسلمون على خطر داهم ، وقد رأينا أن ذلك قد وقع فعلاً حين قامت الثورة ضد النجاشى ، فهيأ للمسلمين سفينتين ليغادروا الحبشة إن تم النصر لعدوه ، وهو يعلم أن المسلمين هم المستهدفون من هذه الثورة ، بينما الاعتماد فى المدينة على الإخوان فيها ، على التجمع الإسلامى الكبير الذى طغى فى يثرب على كل التجمعات ،وأصبح يمثل الكثرة الكبيرة فيها .

والحركة الإسلامية عموماً حين تبحث عن الأرض ليست دائماً تملك الحرية التى تريدها للاختيار ، فقد تضطرها الظروف إلى مكان غير مناسب تماماً ، ولابد لها من قبوله ريثما تجد المكان الأفضل . لقد بقيت الحبشة مأمناً للمسلمين فترة طويلة حتى بعد وجود يثرب ولكنها لم تكن مركزاً لإقامة الدولة ، وحين أتيحت الظروف فى المدينة ، كانت بتوفيق ربانى أن قبل وفد الحجيج اليثربى الإسلام ، فلو فشلت المفاوضات مثلاً فى الإسلام أو الحماية ، أو نجحت محادثات شيبان أو كندة ، لكان الموقع متغيراً حسب المعطيات القائمة.

وأدى هذا إلى رحيل عائلات بأكملها ، فقبيلة بنى غنم من بنى أسد رحل أربعة عشر رجلاً منهم وسبع نسوة مجرد الإذن بالرحيل ، كما تحرك عمر رضي الله عنه وأهله وعشيرته وحلفاؤه ، وتتابع المسلمون يهاجرون فلا يحس المشركون بهم إلا وهم خارج مكة .

السمة السادسة عشرة

اجتماع العدو للقضاء على القيادة

قال ابن إسحاق : (فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، فعرفوا أن الدار دار منعة وأن القوم أهل حلقة وبأس وشوكة. فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم ، وعرفوا أنه أجمع لحربهم، فاجتمعوا فى دار الندوة ، ولم يتخلف أحد من ذوى الرأى والحجى منهم ليتشاوروا فى أمره . . . فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فتيًا ثم نعطى كل فتىً منهم

سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم ، قال : يقول الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)[1] .

وهذه السمة تعنى ما سبق أن أكدناه من قبل وهو أن اغتيال القيادة وإنهاءها هو هدف رئيس بالنسبة للعدو ، وكثيرًا ما يتصور العدو أن انتهاء القائد يعنى انتهاء المواجهة والجهاد والثورة ، وبالرغم من خطورة هذا الأمر ، والدور الرئيس للأمير فى الجماعة ، فهو لا يصح بشكل دائم ، إنه قد يعيق الحركة ، وقد يجهض الثورة لكن المعانى الإسلامية المتغلغلة فى نفوس شباب الدعوة ، لا يمكن أن تنتهى بانتهاء القيادة .

ولقد رأينا كيف أن الشيخ النجدى الذى حضر اللقاء كان يفند كل رأى غير رأى القتل، ويحذر من خطورة بقاء الرسول عليه الصلام والسلام حيّا ، وهو الرأى الذى كان يحرص على الوصول إليه من المتشاورين ، والشيطان الذى وعده الله تعالى أن ينظره إلى يوم البعث نلاحظ أن مخططاته تنصب دائماً فى رؤوس أتباعه على إنهاء القيادة المسلمة فى الأرض إنهاء تامّا ، بل لا يدع للرأى المعتدل أن يسود مهما كان .

ولهذا نرى المحاولات اليائسة التى يقوم بها أعداء الإسلام لإنهاء الحركة الإسلامية عن طريق قتل قياداتها إعدامًا أو اغتيالا ، والذى يلحظ الحاكمين وهم يواجهون الحركة الإسلامية رغم اختلاف مشاربهم ونوازعهم يلتقون جميعا على قتل هذه القيادات . ففى مصر مثلا : كان اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا هو الهدف الرئيس الذى لا ترضى انكلترا بدونه بديلا ، وقد التقى هدفها مع هدف الملك فاروق فى ذلك ، وحين قامت الثورة المصرية كانت ترى فى هذا الاغتيال ظلمًا كبيرًا حتى إنها شكلت محكمة لمحاكمة قتلة الإمام الشهيد، غير أنها عندما رأت قوة الحركة الإسلامية ، سلكت الطريق نفسه الذى سلكه قبلها فاروق ، فأقدمت على إعدام الدفعة الأولى للإخوان المسلمين والمكونة من ستة من قادة هذه الجماعة وعلى رأسهم عبد القادر عودة ، ومحمد فرغلى ، ويوسف طلعت . ورغم مرور

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٠ ، ٤٨١ .

عشر سنوات على هذه المجزرة كان سيد قطب ـ رحمه الله ـ من البقية الباقية من القيادة المفكرة للجماعة ، ومنذ أن رأى الحاكم الطاغية القوة الفكرية لسيد تجتاح الأرض المصرية ، كان الاتحاد السوفييتى هو الذى يصر هذه المرة على رأسه دون أن يحتج أحد من الحاكمين المسلمين وغير المسلمين على ذلك [1] ، ورغم خطورة الإقدام على إعدامه واستياء العالم الإسلامى لذلك ، لم يتراجع الطاغية عن موقفه ، ولم يرض غير الإعدام له مع زملائه ، وجاء خلفه يدعى الديمقراطية وإعادة الحرية ، وعامل كل زعماء المعارضة بالسجن عنده حين رأى خطرهم ، أما المعارضة الإسلامية فلم يكن من حل لها عنده إلا الإعدام ، وقد أقدم على مجزرتين فى عهده :

الأولى : إعدام خمسة ممن اتهموا بحادثة الكلية الفنية .

الثانية : إعدام مجموعة شكرى مصطفى وإخوانه.

ولم يشهد عهد الحكام المتعاقبين إعداما إلا لقادة الاتجاه الإسلامى.

السمة السابعة عشرة
عبقرية التخطيط البشرى فى الهجرة

أ ـ مبيت على رضي الله عنه فى فراشه :

(. . . فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ، فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : « نم على فراشى وتسجَّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام)[2] .

فلقد كان أمر الله تعالى لرسوله ألا ينام على فراشه ، وكان تصرف النبى عليه الصلاة والسلام بنوم علىٍّ على فراشه وتسجيه ببرده جزءًا من مسؤولية القائد فى إنجاح خطته ، وذلك بالتمويه والتعمية على عدوه . وقد نجحت هذه الجزئية فى

(١) إلا ما ذكر من توسط عاهل المملكة السعودية والعراق آنذاك لمنع الإعدام ورفضت وساطتهما .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٢ .

التمويه نجاحًا تامًا رغم الاحتمالات الكبيرة لكشفها ، فلقد قال لهم الرجل الذى رأى محمدًا خارجًا من بيته : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام على رضي الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

ورغم ثقة رسول الله ﷺ بحماية ربه له ، فهذا لم يمنعه من أن يأخذ الاحتياط البشرى الذى يملكه . وفى الوقت الذى أعمى الله تعالى عنه الأبصار أثناء خروجه ، شاءت إرادته تعالى أن يتم لقاء رسول الله مع الراكب القادم ، وأن ينبه العدو إلى خروجه ، لكن الله تعالى حرس نبيه عليه الصلام والسلام من الملاحقة لا بمعجزة ، ولكن بعالم الأسباب فى تخطيط البشر .

وما أحوجنا إلى أن ندرك واجبنا فى الإعداد لمواجهة العدو رغم اعتمادنا الأول والأخير على الله تعالى،لا أن نحيل تقصيرنا وضعفنا وتهاوننا على القدر ، ونتوجع على عدم نصر الله تعالى لنا ، ونحن المسؤولون عن ذلك .

ب ـ الخروج فى النهار :

(قالت عائشة : كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها)[1] .

إذ إن هذه الساعة بالنسبة للناس ساعة القيلولة، وقلما يوجد إنسان فى مكة خارج بيته، خاصة إذا عرفنا أن الخروج كان فى أوائل أيلول، فى آخر شهر من أشهر الصيف كما حققه العلامة المباركفورى، فهذا الخروج هو أضمن ما يكون للسرية وأضمن أن يخفى عن العيون، وأشد ما يكون الجو حرارة ولظى فى هذا الوقت بحيث يأوى كل امرئ إلى بيته.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٤ .

ج ـ الخروج من الكوة :

(. . . فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته . . .) [1] إذ قد يكون بيت أبى بكر مراقبًا ، وهو احتمال كبير بعد أن فات رسول الله المشركون ، وإذا كانت المراقبة قائمة من بيت مجاور أو من مكان فيه ظل بعيد عن الأنظار فستكون المراقبة لباب البيت بالذات يرصد فيه الداخلون والخارجون . وفى الخروج من مخرج سرى بعيد عن المراقبة يعنى ضرورة المحافظة الدائمة على السرية ووضع الاحتمالات الكثيرة لتخطيط العدو ومراقبته .

د ـ الاتجاه إلى الغار :

(. . . ثم عمدا إلى غار بثور فدخلاه . . .)[2] . وإذا توقعنا تخطيط مكة للقضاء على رسول الله ﷺ ، فسوف يكون طريق المدينة مرصودًا من عدد غفير من الفرسان حتى يحال دون وصوله إليها. إن التفكير البشرى سينصب طبيعيا على رصده ؛ لأنه هو هدف الرسول ﷺ، وفى القبض عليه إنهاء للمعركة كاملة معه ، فاتجاه رسول الله ﷺ إلى الغار فوت على العدو مخططه وأحبطه ، وفوَّت عليه القبض عليه .

هـ ـ الغار على غير طريق المدينة :

وتبدو عظمة التخطيط أكثر حين نعلم أن غار ثورٍ فى جنوبى مكة وليس على طريق المدينة حيث احتمالات الرصد . وكما يقول المباركفورى : (ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشًا ستجد فى الطلب ، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالاً ، فقد سلك الطريق الذى يضاده تماما وهو الطريق الواقع جنوب مكة،والمتجه نحو اليمين. سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى ، ذو أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ) [3] .

و ـ المخابرات فى مكة :

(وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع ما يقول الناس فيهما نهاره،

(١، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٨٥ .

(٣) الرحيق المختوم ص ١٨٣ .

ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . . .)[1] . فلا يكفى بقاء المصطفى ﷺ وصاحبه أبى بكر فى الغار مدة معينة ، ثم ينطلقان حسب التقدير إلى المدينة ، لابد من التعرف مباشرة على كل أسرار العدو ومخططاته وتوقعاته ، بحيث تصل أولاً بأول إلى رسول الله ﷺ ، فيكون متابعة تنفيذ الخطة قائمًا على خبرة بالواقع لا على ظنٍ وحدس يخطئ ويصيب.

وكلما كانت القيادة أعلم بواقع العدو ، وأدرى بأسراره ، ولها فى صفوفه من ينقل إليها كل تخطيطاته ، كلما كان ذلك أنجح لها فى تنفيذ خططها ومخططاتها ، وما يوم حليمة بسر ، وما أحداث حماة التى أدت إلى محنتها الرهيبة ، إلا وكان من أكبر أسبابها جهل القيادة بطبيعة مجريات الأمور هناك ، وانقطاع الاتصال بين القيادة فى الخارج والقيادة الميدانية فى الداخل ساهم إلى حد كبير فى تطور الأزمة ومضاعفاتها .

ز ـ تأمين الزاد :

(. . . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . . .)[2]، فقد يكون المقام طويلا فى الغار ولو انقطع الزاد عنهما فقد يهلكان من الجوع ، وأن يحمل عبد الله بن أبى بكر مؤونة إحضار الطعام فقد يلفت ذلك الأنظار ، ويكشف تحركاته ، ويحول دون تأدية مهمته .

ومن حقنا أن نتصور كذلك أنه بإمكان أسماء أن ينقل أخوها عبد الله لها صورة الواقع، وتنقل الزاد والأخبار لرسول الله ، لكن قدرة أسماء على استيعاب الخبر وأبعاده أضعف من قدرة عبد الله. فلابد من اعتماد أوثق الطرق ، كذلك فى الوقت الذى كانت أسماء فيه أقدر على تأمين الزاد ، ولكلا الأخوين اختصاصهما ومكانهما المناسب. ولا نستطيع أن نمر بهذه الفقرة دون الإشارة إلى شخصية أسماء العجيبة وهى ، الأنثى الحامل فى شهورها الأخيرة. وتصعد فى الجبل الذى يُعجزُ المسلم العادى صعوده .

ح ـ إعفاء الأثر :

(. . . وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحهما عليه . . .) [3] ، فإذا كان اقتفاء الأثر خير دليل لمعرفة وجودهما فى الغار ،

(١ ـ ٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٥ .

خاصة وأسماء وعبد الله يوميًا يأتيان إلى الغار ، فكان غنم عامر بن فهيرة هو الذى يأتى على آثار أقدامهما فيعفى الأثر ، ويزيل الاحتمال .

والشباب المجاهدون فى القواعد ، والمختبئون فيها لهم فى هذا الدرس بكل جزئياته ما يدفعهم إلى التعرف على كل وسائل السرية المطلوبة ، وفقدان عنصر واحدٍ من هذه العناصر يجعل القاعدة معرضة للكشف من العدو .

ط ـ الاستمرار ثلاثة أيام :

(فأقام رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر)[1] ؛ لأن الخروج إلى أى مكان فى الأيام الأولى يجعلهما عرضة للوقوع فى قبضة العدو . كما أن المدة الزمنية هذه كانت مرتبطة ارتباطا وثيقًا فى المعلومات المقدمة من عبد الله بن أبى بكر عن خفة الطلب عليهما. كما أن الاستقرار أكثر قد يلفت النظر من الآخرين حين يتكرر المرور عليهما من أسماء وعبد الله كل يوم .

ى ـ الإرادة الربانية تتدخل :

(فى رواية عن أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها قالت : فهيأنا لهم سفرة . . . وخرجوا يطوفون فى جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذى هما فيه ، فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار: يا رسول الله ، إنه ليرانا . فقال : « كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها »، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار ، فقال رسول الله ﷺ : « لو كان يرانا ما فعل هذا »)[2] .

وفى رواية البخارى : (. . . فقلت : يا نبى الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : « اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما »)[3] . وبالرغم من كل الجهد البشرى فى التمويه والإخفاء والسرية ، فلقد وصلت قريش إلى مكان اختفاء رسول الله ﷺ ، والظاهر من رواية أسماء أنهم كانوا يبحثون فى كل جبال مكة عنهما ، ولعل ذلك من وشاية أو توقع. واحتمال وصول قريش عن طريق تتبع الأثر هو احتمال ضعيف، أو ضعف فى الخطة نفسها ؛ لكن الذى نود قوله :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٦ .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٥٣ ، ٥٤ وقال فيه : « رواه الطبرانى وفيه يعقوب بن حميد ، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) البخارى ٢/ ٥/ ٨٣ باب هجرة النبى ﷺ .

إنه حين ينتهى الجهد البشرى المطلوب ، وحين تستنفذ الطاقة البشرية فالله تعالى أرحم بنبيِّه وصاحبه من أن يجعلهما ظفرًا لعدوهما، ولقد قرر الله تعالى فى محكم التنزيل هذا المعنى؛ إذ أكد حمايته لنبيه ونصره له حين تخلت عنه قوة الأرض، وحين كان المسلمون كلهم كقوة بشرية قائمين فى المدينة أو مختفين فى مكة ليس معه للحماية إلا إنسان واحد: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾

[التوبة : ٤٠]

فقوة الأرض كلها بعيدة عن النبى ﷺ المؤمنون والكافرون،ووصل إلى قبضة الطاغوت، وأكد رسول الله ﷺ لصاحبه: « لا تحزن إن الله معنا »، قائلا له عن الرجل المراقب: « إن الملائكة لتظلنا بأجنحتها » مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿ **وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ .

والتعبير القرآنى العجيب أن هذا النصر فى حقيقة الأمر كان بابا لأن تكون كلمة الله هى العليا ، وإذلالاً وإرغامًا للمشركين فى تحطيم كل مخططاتهم بقتل النبى عليه الصلاة والسلام .لقد كانت نجاته عليه الصلاة والسلام من قبضة عدوه نصرًا مؤزرًا تكون كلمة الله تعالى هى العليا فيه .

والدعاة إلى الله بحاجة إلى أن يكون راسخًا فى أعماقهم دائمًا عون الله لهم، حين تعجز قوتهم البشرية عن إدراك ما يخطط لهم العدو بعد استنفاد الطاقة واستفراغ الوسع ، وأن تكون لديهم القناعة التامة ـ كذلك ـ أن النصر أولا وأخيرًا بيد الله .

ك ـ الاستفادة من خبرة المشركين :

(. . . فاستأجرا عبد الله بن أريقط ـ وكان مشركًا ـ يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما).وعلى شركه ، فالاستفادة من خبرته قائمة طالما أنه مأمون لا ينقل الأخبار للمشركين ، والاستفادة من الطاقات غير الإسلامية للحركة الإسلامية أمر مشروع عندما تقتضى الضرورة ذلك .

ل ـ متابعة التمويه :

(. . . فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذى بين يديك ؟

فيقول : هذا الرجل يهدينى السبيل ، فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى به الطريق ، وإنما يعنى به سبيل الخير)[1] . وطالما أن رسول الله ﷺ مع أبى بكر هو الهدف لقريش ، وقد أعلن عن وضع مائة ناقة لمن يعثر عليه ويحضره ، ومائة ناقة ثروة ضخمة للعربى الصعلوك الذى لا يجد قوته ، فسوف تتسامع العرب بخبره وتحاول الظفر به ، وتقدير هذه الصورة دفع أبا بكر رضي الله عنه أن يستعمل هذا التعبير فيوحى للسائل أن رسول الله دليله على الطريق ، وبذلك ينتفى الاتهام الذى يحوم حول أحدهما أن يكون صاحب قريش . إن الدعاة إلى الله لابد أن يكونوا على قدر من الوعى والنباهة وحضور البديهة وحدة الذاكرة ما يجعلهم قادرين على خداع عدوهم،والإفلات من يديه دون أن يستعمل أسلوب الكذب الصراح إلا عند الضرورة. أما الأصل،ففى الكناية والمجاز متسع لهم لتحقيق هذه الغاية ، وكما يقول عليه الصلاة والسلام وهو يخط مبدأ من مبادئ التعامل مع العدو خاصة وغيره بشكل عام : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » [2] .

م ـ الطريق إلى اليمن :

(. . . وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن باتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غربًا نحو الساحل) ولم يكتف رسول الله ﷺ بالإقامة ثلاث ليالٍ فى الغار بل سار بهم الدليل بعيدًا عن الأنظار باتجاه اليمن ، ثم انحرف إلى طريق المدينة ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر . فحتى الطرق الفرعية التى يمكن أن تقود إلى طريق المدينة اختارها ابن أريقط غير مأهولة ، وغير مألوفة للناس إمعانًا فى السرية والبعد عن الأنظار، والطريق الذى اختاره للمدينة بعد ذلك هو غيرالطريق العادى الذى يمضى به الناس إليها (وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا) وكما يحدثنا أبو بكر رضي الله عنه عن هذا الطريق بقوله:(أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبى ﷺ مكانًا بيدى ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله)[3].

---

(١) البخارى ٢/ ٥/ ٧٩ باب هجرة النبى ﷺ .

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شعب الإيمان .

(٣) البخارى ٢/ ٥/ ٨٢ باب هجرة النبى ﷺ .

فالطريق خالية ، والناس قلما يمرون فيها ،فكم كان هذا الدليل ماهرًا خريتًا ، وهو يسير بهم فى كل صوب حتى يقودهم إلى المدينة ؟ إن الجهد البشرى فى عالم الأسباب إذا كان من غير رجال الدعوة أصلاً ، فلا يجوز أن يُسبق رجال الدعوة فيه بحجة الاعتماد على الله والتوكل عليه ، وإذا كان سيد الخلق قد فعل ذلك وهو المصنوع على عناية الله وفى رعايته ، فلا شك أننا نحن أولى بذلك .

ن ـ سراقة والتعامل معه :

ومن الجهد البشرى فى الاحتياط كذلك ما كان يفعله أبو بكر ﷺ (فجعل أبو بكر يسير أمامه،فإذا خشى أن يؤتى من خلفه سار خلفه.فلم يزل كذلك مسيره) ومع هذا الاحتياط فقد لحق سراقة بن مالك برسول الله ﷺ طمعًا فى الجائزة وكما يروى :(. . . فدنوت منهما حتى إنى لأسمع قراءة رسول الله ﷺ ، ثم ركضت الفرس فوقعت بمنخريها، فأخرجت قداحى من كنانتى فضربت بها : أضره أم لا أضره؟ فخرج : لا تضره، فأبت نفسى حتى أتبعه ، فأتيت ذلك الموضع فوقعت الفرس ، فاستخرجت يديه مرة أخرى ، فضربت بالقداح أضره أم لا، فخرج : لا تضره ، فأبت نفسى حتى إذا كنت منه بمثل ذلك الموضع خشية أن يصيبنى مثلما أصابنى بأذيته، فقلت : إنى أرى سيكون لك شأن فقف أكلمك)[1] (فوقف النبى ﷺ فسأله أن يكتب له أمانًا فكتب له أمانا)[2].وفى رواية البخارى: (فناديتهم بالأمان،فوقفوا،فركبت فرسى حتى جئتهم،ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ، ولم يسألانى إلا أن قال : « أخف عنا » ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمان فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ثم مضى رسول الله ﷺ). (ورجع سراقة فجدَّ فى الطلب فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما هاهنا وكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما) [3] ، والحرص على تعدد الروايات هو لاستكمال الصورة ، فما لقيه سراقة من انسياخ قدمى فرسه ومن تعثرها وانكبابها على منخريها ـ كما ثبت فى الروايات الصحيحة ـ جعله يغير خطته، ومن أجل ذلك فلم يقاتل ولم يقتل ، بل تم الاطمئنان إليه :

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد عن الطبرانى ، وسبق تخريجه .

(٢) من رواية الإمام أحمد ، وأورده البخارى فى صحيحه ٢/ ٥ / ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) البخارى ٢/ ٥/ ٧٢ باب هجرة النبى ﷺ .

بأن أتم بقية الخطة فى التعمية، وصرف الناس عن متابعة الطلب فى هذا الطريق . والملاحظ أن سراقة ـ حينئذ ـ لم يسلم وبقى على شركه ، وكل ما وقع عنده هو قناعته بأن الرجل ممنوع ، وأن النصر حليفه لا محالة ، ورضى أن يذود عن رسول الله ﷺ آخر اليوم ويبعد الناس عن ملاحقته فى هذا الطريق.

والدرس المهم لنا من هذه الحادثة ، ونحن فى الحركة الإسلامية نعمل لإعادة الحياة الإسلامية إلى الأرض هو : أن نملك القدرة على تحديد الصديق من العدو وذلك فى صفوف الكفار أنفسهم ، وبإمكان الحركة الإسلامية أن تأخذ من قلب أعدائها من تصبح القناعة عنده بانتصارها ؛ ليتعامل معها ويناصرها ، ويبقى تقدير الأمر لقيادة الجماعة من خلال تعاملها مع هذا الخصم . إن المنطق الظاهرى يقتضى قتل سراقة بن مالك ؛ لأنه قد يدل عليهما ، وهو لم يسلم بعد ، لكن تقدير رسول الله ﷺ لشخصه أنه صادق الولاء لهما، وأنه تخلى عن عدائه لهما أمام هذه المعجزات .

والنقطة الثانية التى تستفيدها الحركة كذلك هى : ألا يكون الحكم على الرجل أو الفئة من خلال الماضى القريب أو البعيد فى عدائهم للإسلام ، فمناط الأمر هو الثقة بتغير هذه الفئة أو هذا الرجل مهما كان ماضيه فى الحرب ضد الإسلام ، والقيادة من خلال تعاملها مع هؤلاء الناس لها الاجتهاد الأوفى بهذا الأمر .

وإذا كان رسول الله ﷺ ينطلق فى أحكامه من الوحى فلا يخطئ ، ولا ينطق عن الهوى، فليس أمام قيادة الحركة الإسلامية إلا الاجتهاد فى هذا الأمر الذى قد يخطئ وقد يصيب ، ولو قدرنا مثلا أنها أخطأت التقدير فلا غضاضة فى ذلك ، ولا داعى لأن تقيم القاعدةُ الدنيا عليها لهذا الخطأ .

إن الحركة الإسلامية فى مسيرها لإقامة دولة الإسلام قد تتحالف مع عدوٍ قريب وتتعاون معه ، بل تطلب منه جزءًا من المناصرة جليلاً أو يسيرًا إذا اطمأنت إليه . وميزان الاطمئنان هو مدى ثقة الحركة بصدق هذا العدو ، وتستطيع أن تبذل الجهد فى التأكد من هذه الثقة ، ولا شىء عليها بعد ذلك أصابت التقدير أم أخطأته .

والنقطة الثالثة التى نفقهها من هذه الحادثة هى : فكرة الأمان لهذا العدو الذى غير موقفه **وأعلن** مناصرته وولاءه ، فكل ما طلبه سراقة هو الأمان ، وطالب به يوم حنين، وإن كنا لا ندرى متى أسلم سراقة رضي الله عنه ، وأغلب الظن أن إسلامه

كان بعد فتح مكة [١]. لكنه أظهر الأمان لرسول الله ﷺ يوم حنين فأقره عليه .

إن سلوك الكافرين ومواقفهم من الحركة الإسلامية يجعل لدى الحركة حرية التعامل معهم من خلال هذه المواقف ، بحيث يكون الأمر فى النهاية لصالح الإسلام ودولته ، وتستطيع أن تهادن وتؤمن وتستعين بمن تشاء بعد تقديرها لموقف هؤلاء الناس دون قيد . وكم نتمنى للقاعدة الإسلامية الصلبة أن تكون عونًا لقيادتها على هذا التحرك ، لا أن توجه لها سهام النقد والتجريح والاتهام فى وعيها على أقل الأحوال ، ليصل الاتهام إلى دينها فى أغلب الأحوال .

س ـ قصة أم معبد :

(عن حبيش بن خالد أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر ، ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ودليلهما الليثى عبد الله بن أريقط ، مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة [٢] جلدة [٣] تحتبى بفناء القبة وتسقى وتطعم. فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروه منها فلم يصيبوا منها شيئًا من ذلك ، وكان القوم مرملين [٤] مسنتين [٥] . فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة . فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت : خلفها الجهد عن الغنم . قال: « فهل بها من لبن ؟ » قالت: هى أجهد من ذلك. قال: « أتأذنين أن أحلبها ». قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله عز وجل ، ودعا الله فى شأنها فتفاجت[٦] عليه ودرت[٧] ، واجترت ، ودعا بإناء يربض الرهط[٨] ، فحلب فيه ثجًا [٩] حتى علاه البهاء [١٠]، ثم سقاها ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب

---

(١) فى رواية ابن إسحاق أنه أسلم إثر عودة رسول الله ﷺ من حنين ، حيث يقول : (خرجت ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح ، ويقولون : إليك إليك ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن مالك فقال : « يوم وفاء وبر ، ادنه » فدنوت منه فأسلمت) . السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٠ .

(٢) برزة : تبرز للرجال ولا تغطى وجهها لكبر سنها .

(٣) جلدة : قوية .

(٤) مرملين : نفد زادهم .

(٥) مسنتين : مجدبين مقحطين .

(٦) التفاج : تفريج ما بين الرجلين .

(٧) درت : نزل لبنها بغزارة .

(٨) يربض الرهط : يشبعهم .

(٩) ثجًا : لبنا سائلا كثيرا .

(١٠) البهاء : رغوة اللبن .

آخرهم ﷺ، ثم حلب فيها ثانيًا بعد مدى ، حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها)[1] .

والذى يعنينا من قصة أم معبد بعد المعجزة الربانية الباهرة ، أنها كانت على بعض الروايات سببًا فى ملاحقة النبى ﷺ والركب منه . وعلى الأقل كانت هذه الضيافة بشكل عام قد حددت مكان السير؛ إذ تذكر الرواية عن أسماء رضي الله عنها: (حين أقبل رجل من الجن من أسفل مكة ، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس يتبعونه يسمعون صوته ما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلاّ خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعُدها للمؤمنين بمرصد

ومع ذلك فلم يكن لهذا الأمر ما يثير الغبار حول كشف المخطط أو مكان السير وطريقه. وقصدنا من هذه الملاحظة ، التأكيد على أن ما يتم فوق الطاقة البشرية من كشف لجانب من جوانب الخطة ، كما جرى حين وصل الركب إلى الغار ، وكما جرى حين وصل سراقة لرسول الله ﷺ ، وكما جرى مع هاتف الجن ، هذه أمور ربانية يهيئها الله تعالى لدعوته ، قد تكون قوة لهؤلاء الدعاة ، وقد تكون كشفًا لهم وامتحانًا عسيرًا لتمحيص صفهم . ففى أحد أعلمنا الله تعالى حكمه وحكمته بقوله جل وعلا : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١].

فبالرغم من أن السرية التامة كانت على الجميع حتى من العصبة المسلمة ما عدا من اشترك فيها (عائشة وأسماء وعبد الله بن أبى بكر وابن أريقط وابن فهيرة ورسول الله ﷺ) مع هذا كله تكشف جانب من الخطة كان فوق التقدير البشرى. فتلقاه رسول الله ﷺ بالتسليم المطلق : ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ ، « ما قولك فى اثنين الله ثالثهما » .

وما أحرانا نحن وقد شهدنا عبقرية التخطيط للهجرة ألا تغيب عنا هذه الجوانب الثلاث:

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ٥٦ وقال فيه : « رواه الطبرانى وفى إسناده رجال لم أعرفهم » . وساق بعدها رواية قريبة من هذه الرواية وقال فيها : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

أولا : علينا أن نستفرغ الوسع ونبذل كل الطاقة فى التخطيط البشرى .

ثانيًا : أن يكون اتكالنا على الله تعالى دون اعتمادنا على الأسباب .

ثالثا : أن نقبل قضاء الله وقدره فيما هو فوق طاقتنا ونطمئن إلى أنه خير للإسلام والمسلمين .

السمة الثامنة عشرة

قاعدة جديدة تنضم إلى الإسلام

وأخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب قال: (لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبى ﷺ حملنى الطمع ، فركبت فى سبعين من بنى سهم ، فلقيته فقال: « من أنت ؟ »، قلت: بريدة ، فالتفت ﷺ إلى أبى بكر وقال : « بَرُد أمرنا وصلح » . ثم قال : «فمن أنت ؟ » ، قلت : من أسلم ، قال : « سلمنا » ، ثم قال:« فمن ؟ » ، قلت : من بنى سهم ، قال : « خرج سهمك يا أبا بكر ». فقال بريدة للنبى ﷺ : من أنت ؟ قال: « أنا محمد بن عبد الله رسول الله » ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعا . قال بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين ، فلما أصبح قال بريدة : يا رسول الله ، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحل عمامته ثم شدّها فى رمح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة)[1] .

لقد كانت بيعة رسول الله ﷺ مع بضع وسبعين من الأنصار وهم مقدمة الأنصار فى المدينة ، وانضمام قافلة جديدة إلى موكب الإيمان من قبيلة أسلم ، والتى كان بريدة بن الحصيب على رأسها يعتبر هذا الأمر تغيرًا خطيرًا فى مراحل الدعوة ، فلم تعد المدينة وحدها صاحبة اللواء الإسلامى المرفوع ، إذ انضم إليها حليف قوى من أسلم ، بهذا التجمع الكبير والجمهرة الضخمة . وهذا يعنى أن الطريق بين مكة والمدينة صار محفوفًا بالمخاطر من هؤلاء ، وعلى الأقل إن لم يتمكنوا من صد هجوم قريش فلا أقل من أن يرصدوه، ويرصدوا كل التحركات المعادية ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام . ولقد كان سرور رسول الله ﷺ عظيمًا بدخول هذه القاعدة فى الإسلام ؛ إذ قال: « أسلم سالمها الله، وغفار غفر

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٤٠٥ .

الله لها ، أما والله ما أنا قلته ، ولكن الله قاله »[1] . ويشير هذا المعنى إلى أن قوة المسلمين وظهور تجمعهم قد جعل القبائل المجاورة على استعداد لقبول الإسلام والانضمام إليه .

كما يشير المعنى كذلك إلى أن الدعوة إلى الله تعالى تبقى هى الهدف الرئيس للمسلمين، فرغم أن الظروف على الطريق إلى المدينة ، لم تكن ظروفًا مؤهلة للخوض فى تفاصيل الإسلام ؛ لكن الهدف الرئيس دائما تتجاوز الظروف من أجله ، وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد للدعوة إلى الله على بصيرة .

السمة التاسعة عشرة
أول إعلان رسمى لشعائر العبادة

(قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، ولبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى . وصلى فيه رسول الله ﷺ)[2] .

فبعد مرور ثلاثة عشر عامًا ليس للمسلمين مركز علنى ثابت يصلون فيه ، تقام فيه شعائر التوحيد ، إذ كانوا يصلون أحيانًا فى الكعبة ، لكن بيت الله الحرام قد أحاط به ثلاثمائة وستون صنمًا ،وكل شعائر الشرك تقام حوله ـ كان مسجد قباء ، كما ذكر القرآن الكريم ، أول مسجد أسس على التقوى ، وكان رواده أول ركب مؤمن خالص الإيمان يعلنون التوحيد ويرفعون راية لا إله إلا الله ، دون خوف من سلطة قاهرة تفرض عليهم غير شعائر الإيمان .

لقد كانت الصلاة فى مسجد قباء نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى بين عهد المحنة والخوف والمعاناة ، وبين عهد التميز والمفاصلة ، والعبادة الخالصة لله وحده دون أثرٍ للشرك والمشركين :

﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والطبرانى والحاكم فى مستدركه .

(٢) البخارى ٢/ ٥/ ٧٧ ، ٧٨ باب هجرة النبى ﷺ .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

ولعل الهدف الأول للحركة الإسلامية اليوم حين تقيم دولة الإسلام أن تعود إلى المساجد روح التوحيد الخالص البعيدة عن مظاهرة الطاغوت والتسبيح بحمده ، دون خوف أو وجل : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] ، وهو الهدف الذى حدده الإسلام للمؤمنين عند التمكين : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١]، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور : ٣٦ ــ ٣٨] .

وكان تجمع قباء ليس خاصّا بأهل قباء وحدهم ، فكما يقول ابن القيم : (وسمعت الرَّجَّةُ والتكبير فى بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه ، وخرجوا للقائه فتلقوه وحيوه بتحية النبوة) (١) .

وكان هذا التجمع خاليا من كل الشكليات والرسميات،وكما روى البخارى :

(فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صامتًا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله عند ذلك) (٢) .

إنه سيد خلق الله كافة، ويعيش مع أصحابه كأنه واحد منهم،حتى لا يعرف إلا عندما يظلل بالرداء من أبى بكر .

ومعالم دولة الإسلام فى الأرض بهذه القيادة وبهذا التواضع والتعايش لحَرِيَّة أن تكون منهاجًا لكل مسؤول وقائد كيف تكون علاقته مع إخوانه وجنوده.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٨ ، ط الرسالة .

(٢) البخارى ٢/ ٥/ ٧٧ ـ ٧٨ باب هجرة النبى ﷺ .

السمة العشرون

نجاح الخطة ، ووصول القائد الأعلى إلى مركز القيادة

(ثم إن رسول الله ﷺ ركب يوم الجمعة، فمر على بنى سالم ، فصلى فيهم الجمعة، وكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم واستقبل بيت المقدس ، فلما أبصرته اليهود صلى إلى قبلتهم تذاكروا بينهم أنه النبى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل .

ثم ركب رسول الله ﷺ من بنى سالم فقالوا : يا رسول الله ، فينا العدد والعدة والسلاح، وقال مُجَمّع بن يزيد : مكث رسول الله ﷺ فينا اثنتين وعشرين ليلة ، وكانت الأنصار قد اجتمعت فتلقوه قبل أن يركب من بنى عمرو ابن عوف ، فمشوا حول ناقته لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شُحًا على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيما له ، وكلما مر بدار من دور الأنصار دعوه إلى المنزل فيقول رسول الله ﷺ : « دعوها فإنها مأمورة ، إنما أنزل حيث أنزلنى الله » ، فلما انتهت به الناقة إلى باب بنى أيوب بركت على الباب ، فنزل فدخل بيت أبى أيوب فنزل عليه)[1] .

وها هو رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار يحفون بهم ، ويفدونه بآبائهم وأمهاتهم ، ويضعون دماءهم وأموالهم تحت تصرفه (وجعل النساء والصبيان يقولون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع)[2]

وقامت دولة الإسلام الأولى فى الأرض تحف بها ملائكة السماء بعد جهاد ضار مضن استمر ثلاثة عشر عامًا كاملة . وكانت الخطوة الأولى فى هذه المرحلة هى بناء المسجد الذى سيكون مركز انطلاقة لهذه الدولة ودار الحكم فيها ومقر قيادة الجيش ، ومحضن التربية الأول ودار القضاء العالى .

وإذا استعدنا الخطوط العامة لهذه المرحلة الثالثة للعهد المكى ، والتى ابتدأت

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٥٠٠ ، ٥٠١ . (٢) المصدر السابق ٢/ ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

من رحلة الطائف الشاقة مع قول رسول الله ﷺ : « يا أرحم الراحمين إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . . . » ، هذه المرحلة التى ابتدأت ولا نصير ولا معين يغادر الطائف مدمى القدمين من الحجارة من سفهاء القوم، وتتوج هذه المرحلة بين أسود الأنصار وأبطال المهاجرين يقضون جميعا دون أن تنال قائدهم شوكة تؤذيه فى رجله ويعلنون :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

لأدركنا خطورة هذه المرحلة ، وأدركنا معالمها ، وأدركنا سماتها ، وعبقرية النبوة فى إقامة هذه الدولة دون أن تراق قطرة دم .

opeikandl.com